

كلمة صغيرة

الخطاب العلماني - إزاء فضحه من الإسلاميين وتعريتهم له في الكثير من الدراسات - اتخذ مساراً جديداً بعيداً عن الموضوعية التي طالما تشدقاً بها ومصادماً للحرية التي يزعمون أنها من حق الآخر ، باتخاذهم منهاجاً جديداً في السب والشتم والقذف ، وحتى لا تراق مياه وجوههم لا يوقعون -أحياناً- ردهم في العداء للإسلام ودعاته وهذا ليس غريباً عليهم فهم جبناء عند الحوار الموضوعي، وإذا تورط أحدهم فيه، استخدم كل مواهبه في التزوير والمغالطة والكذب لستر سوءاته، وقد أدى بهم هذا النهج إلى التأكيد على أنهم منافقون عقدياً ، وميكافيليون سياسياً ، وسوفسطائيون فكريأً ، بل إن أحدهم سمي اهتداء الفنانات (الحرب بالنقاب)!

فماذا يبقى لكم من دعوى الإسلام إذا هاجمتوه أو أنكرتم ما جاء به؟! أو اتهتمم دعاته بأنهم دعاة للظلم والتخلف! إن ثقة الناس في علمائهم الموثوقين لا حد لها ، مهما افترتم عليهم أو غالطتم في حقهم.

وأخيراً نقول لكم (إذا لم تستحوا فاصنعوا ما تشاون).

الافتتاحية تعالوا إلى كلمة سواء

الحمد لله وحده والصلوة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد..

لما رأى نفر من عقلاء الأمة أن قوتهم ونهضتهم لا يمكن أن تكون إلا بالعودة للأصول وبالرجوع للجذور ، وظهرت الصحوة الإسلامية على كل الأصعدة ، وإن كانت لم تسلم من بعض السلبيات إذ صارت مع اختلاف الآراء وتباطئ المنطلقات مجالاً للحزبية الضيقية وحب السيطرة والزعامة فنشأت اختلافات في الرؤى والمنطلقات ساهمت في إضعاف هذه الصحوة مما مكن لأعدائها من العلمانيين بشتى اتجاهاتهم المشبوهة من الافتراء عليها والدعائية الكاذبة ضدها، ولا يكاد مجتمع إسلامي أن يسلم من الصراع المرير بين الإسلاميين والعلمانيين ووجدت بعض الحكومات في بعض البلدان فرصة في تأجيج الصراع بين الفريقين لتبقى هي المسيطرة على أزمة الأمور ، ولتنسى الشعوب المغلوبة على أمرها ما تعشه من ظلم وفقر وجهل..

وبما أن الإسلاميين هم أصحاب المبادئ والدعاة إلى الحق وأن فتح المجال لهم سيؤدي في النهاية لسقوط تلك الحكومات الصوتية ، لذا عمدوا إلى مضائقية التيار الإسلامي بمقدار حقه في الوجود ، وبوضع القوانين التي تحد من دوره وفعالية تأثيره في تلك المجتمعات ، مع التفنن في وضع كل صور الاستفزاز للإسلاميين وبخاصة في وسائل الإعلام والتعليم ، وعملوا بأسلوب معروف هو (احتواء) بعض العلماء ليكونوا ناطقين رسميين لتلك الحكومات العلمانية ضد أي رأي صادق ، وأي فكر نزيه يدعوه لإعطاء الإسلام ودعاته دورهم في الإصلاح ورأينا من هؤلاء من يهاجم دعوة الإسلام بكل صفافة لصالح من لا يحكم بشرع الله ، فإلى الله المشتكى.

هذا فضلاً عن ما تقوم به تلك الحكومات من تشجيع للتيارات العلمانية من يسارية وليبرالية ، بإعطائها حق الوجود ، وحق إبداء الرأي وبكل الوسائل المتاحة، بل وفسحت المجال للاقفراء والكذب على الإسلاميين بلا وازع من دين أو رادع من ضمير ، فهل هذا من العدل أو من المساواة أو من الحريات التي طالما تشدقت بها تلك الحكومات؟! إن الحقيقة العلمية الثابتة تؤكد على أن الضغط يولد الانفجار..!

لذا وجدنا تلك المجتمعات التي حرمت دعوة الإسلام من العمل في وضح النهار وفي الهواء الطلق ، وأطلقت العنان لغير الإسلاميين من أي توجه علماني ، بدعوى أنه لا يصح قيام تجمع من منطلق ديني لأننا حسب رأيهم كلنا مسلمون.. لكنها لم تحرم الأحزاب القومية أو الأحزاب الديمقراطية ، ولم تحرم الأحزاب الوطنية بالحجنة نفسها ، ولكن حين نعلم السبب يبطل العجب فالمقصود هو الإسلام الذي لا يُراد له صوت مرتفع يدعو باسمه لأن الشعوب مسلمة ، وحل مشكلاتها فعلاً في الإسلام ، وحينها ستسقط الأصنام.

لقد وجدنا تلك المجتمعات التي ينادى حكمها الإسلام ودعاته تعيش أوضاعاً مأساوية من اضطراب وفقدان الأمن، مما هو حديث الساعة كل يوم.

لكن حين ثُرِّم بعض الفئات من حقوقها وتضطهد وتحارب في وجودها فمن يمنع اليائسين من ردود الأفعال العنيفة ومن يقنع أولئك بعدم تجاوز الحدود ومن يفهمهم بسلوك الطريق المستقيم وعدم اللجوء إلى العنف المضاد؟!

لا يكاد يختلف اثنان في أن السبيل إلى ذلك هو إعطاء الجميع حقوقهم وعدم التفرقة في المعاملة في الحقوق المدنية ، وفتح الحوار عن طريق العلماء المعروفين بخبرتهم وماضيهم المجيد في الدعوة إلى الله ، وأن خلاف ذلك ليس من ورائه إلا سوء الأحوال مما يسر له كل عدو وشامت ، ولا نشك أن وراء تلك الفتنة أناس مشبوهون يعملون على اضطراب مسار الأمة وانحرافه عن الصواب .

والملاحظ أنه عند فشل السياسات الحكومية العلمانية في حرب الدعوة والدعاة ، وحينما يكون نتيجة العنف والإرهاب الحكومي عنفاً وإرهاباً مضاداً يعلم الحاكمون بأمرهم أن اللجوء للحوار هو البديل ، لكننا نفاجأ بأن الحوار إنما هو انتقائي ، وأن فئات فاعلة لها كيانها ولها تأثيرها ، بل حتى اتجاهات فكرية تعرف بالاعتدال من كل الدارسين عالمياً ، نفاجأ أنها نُحيت عن الحوار ولا ندرى مع من يتم الحوار وعلى ماذا يتم التناقش.

والويل كل الويل لمن يحتاج أو يطالب حتى بتطبيق قانونهم جدلاً فاللجوء إلى القمع جاهز ، وإعلان الطوارئ أو الحصار أقرب ما يكون! إنه من العقل بل من الشرع والمصلحة العليا للأمة المراجعة الشاملة لسياسات الضرب بيد من حديد أو سياسات الضرب في المليان، والعمل على جمع الأمة على كلمة سواء وأن يعطي العلماء دورهم الصحيح في الدعوة وجمع الشمل والحوار البناء قبل أن تحرق الأوراق وقبل أن نعرض أصابع الندم.

إننا مازلنا ندعو إلى تحكيم شرع الله ، فهو علامة إسلامنا ودليل انتمائنا لهذا الدين، تحقيقاً لعبوديتنا لله تعالى ، واحتراماً لرغبات شعوبنا التي تطالب بتحكيم شريعة الله والتوقف عن مهازل مجالس الشعب والبرلمانات التي تلهي الأمة بالدعوة لتطبيق الشريعة، ثم الدعوة إلى التقين لأحكامها، حتى إذا أوشكت تلك المجالس على تنفيذ ذلك حلت بأمر رئاسي فتلغى تلك الجهود التي أوشكت على التمام لتبدأ من جديد انتخابات ثم مناقشات ثم دراسات ثم تحل، وهكذا دواليك. إن تلك الأساليب لم تعد تخفي على أحد، فهي أساليب مخادعة ومكشوفة ، فإلى متى نخادع شعوبنا ونغالط أنفسنا؟!

إن واقع أمتنا مريء منذ أن نحيت شريعة الله ، ومنذ حكم أمتنا كل علماني عنيد يقف بكل صفافة ضد أي دعوة إلى تحكيم الإسلام بدعوى أنه رجعية وتخلف، فأي خير يأتي من هؤلاء غير ما نلمسه من انحراف وسوء أحوال؟ مما جرأ إحدى الدول الغربية لتضع في استراتيجيتها الاستعمارية الجديدة العمل على زيادة تأثير نفوذها في إحدى البلدان العربية ، وقد نشر هذا على الملا ، فهل من مصلحة أمتنا أن يتحكم فيها الأجنبي وأن يبعد عنها كل مصلح غيور؟!

إننا ندعو إلى المراجعة وإلى المحاسبة وإلى الاستماع إلى كل قول رشيد يهدف إلى المصلحة العليا للأمة ، بدلاً من أن تكون معوقين للوصول إلى جادة الصواب ، ومكرسين لعوامل القلق والاضطراب.. إن علاجنا بين أيدينا لكننا نهرب عنه متسببين بأهل الكتاب الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها.

العزاء لنا وللأمة جميعاً أن كل طاغية ينحي شرع الله ويحارب أولياءه إنما هو محارب الله ولرسوله وللمؤمنين ، ولن يفلح مثل هؤلاء أبداً ، ولنا أمل جد كبير في الله تعالى أن يرزق الأمة الرجال الأكفاء الذين يعيدونها للمنهج الإلهي وأن يضعوا ثقتهم في العلماء المخلصين والداعية المصلحين مع العمل لما فيه مصلحة البلاد والعباد ، وحينها سيغير الله الأحوال إلى الأحسن والأصلاح بإذنه تعالى ، وما ذلك على الله بعزيز ، إن صحت النوايا وحسنت المقاصد ، وإن فالموعد الله ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

مصطلاحات أهل السنة والجماعة

محمد بن عبد الله الوهبي

السنة في الاصطلاح تأتي بعده معان١) ولا يعنيها في هذا المقال الموجز تتبع تلك المعاني ، وإنما يعنيها أن نُعرّف بمصطلح «السنة» أو «أهل السنة» باعتبارها دلالة على اتجاه معين في الاعتقاد ، يقول الإمام ابن رجب رحمه الله:«... وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء»٢) ومراد هؤلاء الأئمة بـ«السنة» طريقة النبي صلى الله عليه وسلم- التي كان عليها هو وأصحابه ، السالمة من الشبهات والشهوات ، ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول: «أهل السنة من عرف ما يدخل في بطيءه من حلال»٣) ، وذلك لأن عدم أكل الحرام من أعظم خصال السنة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم- وأصحابه رضي الله عنهم ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرین من أهل الحديث وغيرهم: السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات ، وبخاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكذلك في مسائل القدر وفضائل الصحابة ، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم ، والمخالف فيه على شفا هلكة ، وأما السنة الكاملة فهي الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات)٤).

وأهل السنة هم المتبعون لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم- وسنة أصحابه رضي الله عنهم ، يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله : «... ولا ريب في أن أهل النقل والأثر المتبعين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم- وآثار أصحابه ، هم أهل السنة»٥).

إذاً لفظ «أهل السنة» يقصد به معنيان: الأول متابعة السنن والآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم- وصحابته رضي الله عنهم والعناية بها ، وتمييز صحيحها من سقيمهها ، والتزام

موجبها من الأقوال والأعمال في مجال العقيدة والأحكام والثاني: أخص من المعنى الأول ، وهو الذي عناه بعض المصنفين حيث سموا كتبهم باسم السنة كابن أبي عاصم وأحمد بن حنبل وابنه والخلال وغيرهم ، ويعنون بذلك الاعتقاد الصحيح الثابت بالنص والإجماع ، وفي كلا المعينين يتبيّن لنا أن مذهب أهل السنة امتداد لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أما التسمية بأهل السنة فنشأت بعد الفتنة عند بداية ظهور الفرق.

قال ابن سيرين رحمة الله : «لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»^(٦) ، وسئل الإمام مالك رحمة الله «من أهل السنة؟ قال: أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا قدربي ولا رافضي»^(٧) ، ثم لما صارت للجهمية شوكة ودولة امتحنا الناس ودعوهم إلى التجمّه بالترغيب والترهيب فآذوا الناس وعدبوهم ، بل وقتلوا بعض من لم يقل بقولهم ، فسخر الله لأهل السنة الإمام أحمد رحمة الله حيث صبر على امتحانهم وابتلائهم ، وناظرهم وفند حجتهم وأعلن السنة وأظهرها ، ووقف في وجه أهل البدع والكلام ، فصار بسبب ذلك يلقب بإمام أهل السنة. نستنتج مما سبق أن مصطلح «أهل السنة» اشتهر عند الأئمة المتقدمين باعتباره مصطلحاً مقابلاً لمصطلح «أهل الأهواء والبدع» من الرافضة والجهمية والخوارج والمرجئة وغيرهم ، فأهل السنة هم الذين بقوا على الأصل الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأصحابه رضي الله عنهم.

أهل السنة والجماعة:

ويطلق على أتباع مذهب السلف الصالح في الاعتقاد «أهل السنة والجماعة» ، وقد وردت أحاديث كثيرة تأمر بلزم الجماعة ، وتنهى عن الفرقـة والخروج^(٨) ، وقد اختلف العلماء في المقصود بالجماعة على عدة أقوال^(٩) أحدها أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام ، والثاني أنهم الأئمة المجتهدون والثالث أنهم الصحابة رضي الله عنهم ، والرابع هي جماعة المسلمين إذا أجمعوا على أمر ، والخامس جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى معينين: (الأول: أن الجماعة هم الذين اجتمعوا على أمير على مقتضى الشرع ، فيجب لزوم هذه الجماعة ، ويحرم الخروج عليها وعلى أميرها ، والثاني: أن الجماعة ما عليه أهل السنة من الاتباع وترك الابتداع ، وهو المذهب الحق الواجب اتباعه والسير على منهاجه ، وهذا معنى تفسير الجماعة بالصحابة ، أو أهل العلم والحديث ، أو الإجماع ، أو السواد الأعظم...)^(١٠).

ويقول شيخ الإسلام: «وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الإجماع وضدها الفرقـة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس المجتمعين و «الإجماع» هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين ، وهم يزدّنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة ، مما له تعلق بالدين...»^(١١).

ومصطلح «أهل السنة والجماعة» يؤدي نفس المعنى الذي يؤديه مصطلح «أهل السنة» ، فعامة استعمالات الأئمة له مقابل أهل البدع والأهواء ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك: قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى((يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)) [آل عمران: ٦] ، «فأما الذين أبيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة ، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة»^(١٢).

وقال سفيان الثوري رحمة الله : (إذا بلغك عن رجل بالشرق صاحب سنة، وأخر بالغرب فابعث إليهما بالسلام وادع لهما ، ما أقل أهل السنة والجماعة)^(١٣).

إذاً يمكن أن نعتبر مسمى أهل السنة والجماعة بين الفرق ، كمسمى المسلمين بين الملل، فالانساب إليه والتسمى به واستعماله باعتباره دلالة على صحة الاعتقاد والمنهج، أمر حسن وسائغ باعتباره انتساباً لاسم شرعي ، وقد استعمله أئمة السلف ، ومن أكثر الأئمة استعمالاً لهذا المصطلح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

الأشاعرة والماتريدية ومصطلح أهل السنة والجماعة:

يكثُر استعمال هذا المصطلح بين الأشاعرة والماتريدية ، ويُعتبر كثيراً منهم أن مذهب السلف «أهل السنة والجماعة» هو ما قاله أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي ، وبعضهم يعتبر أهل السنة والجماعة «الأشاعرة والماتريدية ومذهب السلف».

يقول الزبيدي: (إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية) (١٤) ، ويقول صاحب الروضۃ البھیۃ: (اعلم أن مدار جميع عقائد أهل السنة والجماعة على كلام قطبين أحدهما الإمام أبو الحسن الأشعري والثاني الإمام أبو منصور الماتريدي...) (١٥) ، أما الأیجي فيقول: (... وأما الفرقة الناجية المستثناء: الذين قال فيهم الرسول صلی الله عليه وسلم: «هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي» فهم الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة) (١٦) ، ويقول حسن أبيوب من المعاصرین: (أهل السنة هم أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي ومن سلك طریقهما ، وكانوا يسرون على طریقة السلف الصالح في فهم العقائد) (١٧) ، وعامة هؤلاء يذکرون عقائد الأشاعرة والماتريدية على أنها مذهب أهل السنة والجماعة ، وليس المقصود هنا مناقشة هذا الادعاء الباطل ، وإنما أردت ذكر فائدتين في هذا المجال هما:

- ١- أن استعمال الأشاعرة والماتريدية ومن تأثر بهم لهذا المصطلح لا يغير شيئاً من حقيقة ابتداعهم وانحرافهم عن منهج السلف الصالح في أبواب كثيرة لا مجال لتقصيلها هنا.
- ٢- أن استعمالهم لهذا المصطلح لا يمنعنا من استعماله والتسمى به باعتباره اسمًا شرعياً استعمله أئمة السلف ، ولا يعاب من يستعمله أو يُذم ، إنما يعاب إذا خالف اعتقاد ومذهب السلف الصالح في أي أصل من الأصول.

هوامش:

(١) اجتهد بعض الباحثين في تتبع معاني السنة ومرادفاتها ، ومن أوسع الدراسات في ذلك ما كتبه الشيخ عبد الرحمن المحمود في «مواقف ابن تيمية من الأشاعرة» ٣٨٠٤/١، وما كتبه الشيخ ناصر العقل في رسالة مستقلة بعنوان «مفهوم أهل السنة والجماعة عند أهل السنة والجماعة».

(٢) رواه اللالكائي في شرح السنة رقم ٤٩.

(٣) انظر نصاً مقارباً في اللالكائي رقم ٥١ ، وأبي نعيم في الحلية ١٠٤/٨.

(٤) كشف الكريمة ١٩٢٠.

(٥) تلبيس إبليس لابن الجوزي ١٦ وانظر الفصل لابن حزم ١٠٧/٢.

(٦) رواه مسلم في مقدمة صحيحه ص ١٥.

(٧) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ٣٥.

(٨) انظر رسالة قيمة في هذا الباب فيها جمع للنصوص الواردة في ذلك وعنوانها «وجوب لزوم الجماعة وذم الفرق» ، جمال بن أحمد بادي انظر ص ١١٧-١٥.

(٩) الاعتصام ٢٦٠/٢.

(١٠) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١٧/١.

(١١) مجموع الفتاوى ١٧٥/٣.

- (١٢) رواه الالكائي ٧٢/١ ، وابن بطة في الشرح والإبانة ١٣٧ ، ونسبة السيوطي إلى الخطيب في تاريخه وابن أبي حاتم ، الدر المنشور ٦٣/٢ .
- (١٣) رواه الالكائي في شرح السنة ٦٤/١ وابن الجوزي في تلبيس البليس ٩ .
- (١٤) إتحاف السادة المتنقين ٦/٢ .
- (١٥) الروضة البهية لأبي عذبة ٣ .
- (١٦) المواقف ٤٢٩ .
- (١٧) تبسيط العقائد الإسلامية ٢٩٩ وانظر التبصير في أصول الدين ١٥٣ والتمهيد للنسفي ٢ ، والفرق بين الفرق ٣٢٣ ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ١٥٠ وغيرها.

محاضرات إسلامية
فقه النوازل والواقعات
دليل على ارتباط الفقه بالحياة

- ٢ -

د. عبد العزيز القارئ

في الحلقة الأولى من هذه المحاضرة لفضيلة الدكتور عبد العزيز القارئ عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، تطرق فضيلته إلى حقيقة الفقه وكيف أبدع الصحابة فيه ونبه فضيلته على خطر ظاهرة الاشتغال بالصناعة الحديثية على حساب الفقه بمعناه الشامل ، ثم تطرق لمسألة الاجتهاد وأثره العظيم في حياة الناس وبيان الأحكام الشرعية ، وكيف كان فقه الصحابة فقه تطبيق وليس فقه نظريات جامدة ، ونواصل معكم بقية هذه المحاضرة المهمة.

-البيان-

نماذج من فقه الصحابة:

وسأضرب لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في فقه النوازل والواقعات أربعة أمثلة:

المثال الأول في العبادات:

الأذان يوم الجمعة: فقد كان الأذان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم- أوله عندما يجلس الإمام على المنبر ، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر ، وفي عهد عثمان وعلي ، كثُر الناس وزاد الأذان الثالث على الزوراء^(١) ، الأذان الثالث كما ورد في النص باعتبار الأذان الذي عند جلوس الإمام على المنبر وباعتبار الإقامة فإنها تسمى أيضاً أذان ، فزاد الأذان الأول على الزوراء ، وفي بعض الروايات أن الزوراء دار كانت في السوق ، وفي بعض الروايات أنه أمر بذلك ليعلم الناس بدخول أو بحضور وقت الجمعة قبل أن يخرج الإمام إلى المسجد أو إلى المنبر.

ما كان هذا الأذان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم- ولا على عهد الصالحين ، وإنما هو سنة الخليفة الراشد عثمان قياساً على باقي الصلوات ، هذا أذان لإعلام الناس بدخول الوقت في أوله ، فилас الجمعة على باقي الصلوات ، هذه نازلة وهذا ما واجهها به الصحابة من فقه ، والصحابة في عهد عثمان عملوا بفعله فيسائر المدن والأقصارات ، وقد كانوا منتشرين فيها.

المثال الثاني في الطلاق:

فقد روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهم أن الطلاق كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم - وعهد أبي بكر وستين من خلافة عمر ، أن طلاق الثلاث كانت توقع واحدة ، فقال عمر : «إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم فيه أذنة ، فلو أمضيناهم عليهم» (٢) ، فأمضاه عليهم بمشاورة من الصحابة ، وحقيقة هذه المسألة كما أفهم والله أعلم أن عمر أولاً كان يسأل المطلق الذي أوقع الثلاث دفعة واحدة عن قصده ماذا يقصد هل يقصد إيقاعها ثلاثة أو ما قصد إلا التأكيد وإيقاعها واحدة ، ثم لما تتابع الناس على ذلك ، وكثير منهم واستخفوا به صار لا يسأل أحداً عن مقصده ، ولا يفرق بين من يقصد التأكيد وإيقاعها واحدة أو لا يقصد ذلك ، ويمضيه على الجميع ثلاثة ردعاً للناس الذين كثر منهم هذا واستخروا بحدود الله عز وجل .

هذا مثال آخر لطريقة الصحابة في مواجهة النوازل ، فإن الحال في وقت عمر تغير عن الحال في وقت النبي صوأبي بكر .

المثال الثالث حد الخمر:

وهو يشبه هذا المثال ، ولكنه في الحدود (حد الخمر) ، فشارب الخمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - كان يضرب بالجريدة وبالنعال ويبكت (بمعنى أن يقال له أما تستحي أما تتucci الله .. ونحو ذلك) ، وفي عهد أبي بكر جلدأربعين ، وفي عهد عمر قال عمر رضي الله عنه : ويبدو أن شاري الخمر قد كثروا في عهده فاستشار الصحابة ، فقال علي رضي الله عنه إنه إذا شربها سكر وإذا سكر هذه وإذا هذه افترى ، فجلده ثمانين مثل عقوبة القربة ، وفي رواية أن عبد الرحمن بن عوف قال له رضي الله عنه : إن أخف الحدود ثمانون جلد فامضوا عقوبة شارب الخمر ثمانين جلدة ، فاختل了一 الفقهاء في فهم ذلك : بعضهم قالوا إن حد الخمر ثمانون ، وبعضهم قالوا حدتها أربعون وما زاد فهو تعزير ، وللإمام أن يزيد تعزيراً إذا كان ذلك اجتهاد من إمام عادل .

المثال الرابع في المعاملات:

وهو تضمين الصناع ، فالصانع إذا ادعى هلاك المتاع الذي بحوزته وليس له بينة على ذلك ، كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - وعهد الخلفاء قبل علي يصدق ، وفي عهد علي الزழمه بالضمان ، وقال لا يصلح الناس إلا ذلك . لماذا؟ لأن الناس في عهد علي رضي الله عنه اختلف حالهم عن حال الناس في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - وعهد أبي بكر وعثمان فإن التزامهم بالصدق وبالحق صار أخف مما سبق فاختلف حالهم عن ذي قبل ، ومن مثل هذا استتباط العلماء قاعدة اختلاف الفتاوى بسبب فساد الناس ، كما تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدهم من أحكام ، ففساد الناس وفساد الأحوال تتغير بموجبه الفتوى .

هذه أربعة أمثلة تبين لنا منهج السلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - في مواجهة ما يستجد من واقعات ونوازل ، ونستفيد من هذه الأمثلة دروساً عظيمة لواقعنا ولحالنا أصلح الله حالنا ، ومنها :

١- أن الاجتهاد لا يسوغ من كل أحد إنما يسوغ من له الأهلية فقط ، فإن أبو بكر أو عمر أو غيرهما من الخلفاء الراشدين ما كانوا يستشرون كل أحد ، بل كانوا يستشرون فقهاء الصحابة وأهل العلم والرأي منهم .

٢- ومن هذه الدروس أن الاجتهاد ليس صلاحية مطلقة للمجتهد ، بل يجب أن يكون مقيداً بالقواعد الشرعية والمبادئ الكلية والأصول المعتبرة عند الفقهاء وعند العلماء ، والتي استبسطت من الكتاب والسنة . ولو تأمل الدارس المتفق على كل مثال من الأمثلة الآنفة الذكر وغيرها من الأمثلة ، لوجد هذه الحقيقة فيها ، فإن الصحابة رضي الله عنهم لا يخرجون في اجتهاداتهم هذه عن المبادئ الكلية التي دل عليها الكتاب والسنة .

٣- ومن هذه الدروس أن مدار الشرع على المصلحة: على جلب المصالح المعتبرة ، وعلى درء المفاسد المحققة فحيث ما تكون المصلحة الشرعية فثم شرع الله كما يقول ابن القيم رحمه الله فلا أقول كما يقول بعض الكتاب المعاصرين: إن الشريعة الإسلامية مرنّة!! فكلمة مرنّة في عرفهم تحتها ما تحتها ، لكن أقول إن الشريعة الإسلامية ، والفقه الإسلامي صالح للتطبيق في كل زمان ومكان مهما اختلفت أحوال الناس ، ومهما استجد من متغيرات ومن تطورات فالمصلحة معتبرة لكن أهواه الناس غير معتبرة ، وشهوات الحكام ورغبات السلاطين غير معتبرة في الشريعة الإسلامية ولا لدى الفقهاء الذين يتلون الله عز وجل في البيان ، وهذه القاعدة (دوران الشرع على المصلحة) لا يعرفها إلا الفقهاء ولا يقدر على تطبيقها إلا الفقهاء والعلماء الربانيون.

٤- ومن هذه الدروس أيضاً أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- إضافة إلى عملهم الغزير بكتاب الله عز وجل وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم-، وبفهمهم العميق للأحكام الشرعية كانوا كما نوهت على بصيرة كاملة بالواقع وتعجب من اختلاف فتاوهم ، فتجد الصحابي في المدينة له فتوى وفي العراق له فتوى أخرى ، وفي حالة له فتوى وفي حالة أخرى له فتوى أخرى ، كما ضربت في هذه الأمثلة ، وهذا يدل على أنهم متبرسين بالواقع الذي يعيشونه مدركون تمام الإدراك للواقع المستجدة التي يواجهونها ، وهكذا يجب أن يكون الفقيه.

ومن أعجب الأمثلة على ذلك: ما رواه ابن أبي شيبة عن سعد بن عبيدة قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال له: ألم قتل مؤمناً توبه؟ قال: إلى النار، فلما ذهب وانصرف قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا بما شأن اليوم؟ قال: إنني أحسبه مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك^(٣).

فاختلاف الحالات لدى المفتى كالطبيب يصف لكل مريض ما يناسب حاله فلو أفتى هذا بأن له توبة كأنه حرضه على أن ينفذ ما في قراره نفسه ، وفي رواية أنه سئل يعني أن سائلين سأله فسأله سائل هل لمن قتل توبة؟ قال: لا وسائله سائل آخر في مرة أخرى فقال: نعم. فلما سئل عن هذا الاختلاف في الفتوى قال: رأيت في عيني الأول أنه يقصد القتل فقمته ، وأما الثاني فكان صاحب واقعة يطلب المخرج.

هل تريدون مثلاً أوضح من هذا على عظم أهمية أن يكون الفقيه متبرساً بالواقع، عالماً بأحوال الناس ، عالماً بملابسات الواقع التي تطرأ عليه والنوازل التي تستجد؟!

٥- ومن أعظم الدروس المستفادة من هذه الأمثلة آنفة الذكرأن في منهج السلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- ما يمكن أن نسميه بالشوري العلمية فقد كان أبو بكر الصديق إذا نرلت به نازلة ، ولم يجد فيها فيما يعلم سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- يخرج إلى الناس فيسألهم ، أخرج البغوي عن ميمون بن مهران رحمه الله قال: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى به ، فإن لم يكن في الكتاب ، وعلم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في ذلك سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين: أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء ، فربما اجتمع النفر كلهم يذكر كل واحد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قضاء ، فإن أعياه أن يجد فيه سنة جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم (لاحظ استفقاء ثم شوري أهل الفقه والحل والعقد) ، فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به. وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك إلا أنه إن أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء فإن وجد أبا بكر قضى به بقضاء قضى به وإن دعا رؤوس الناس، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به ومع أن هؤلاء هم من هم ومع ذلك لا يغترون برأيهم ولا يستدلون باجتهادهم ، بل يشاورون الناس وتجد الواحد اليوم مع قلة بضاعته وغلبة الهوى عليه ينفرد بنفسه بين جدران أربعة

ويخرج علينا بأراء عجيبة لا فقه فيها ولا بصيرة ولا يتقى الله فيها ، ويريد أن يحمل الناس عليها. استبداد علمي مع أنه لا استبداد في العلم في الإسلام ، كما أنه لا استبداد في السياسة ، والاستبداد السياسي والاستبداد العلمي كلاهما مذموم في الإسلام.

معالم على طريق الاجتهاد:

ثم إن الاجتهاد في المسائل الاجتهادية فيما فيه مجال للاجتهاد وإذا وقع من المجتهدين مهما كان الاجتهاد جزئياً أو كلياً على أنواعه التي يذكرها الفقهاء يجب أن لا يؤدي إلى التنازع والتناحر والتطاحن. انظر إلى الصحابة وخذ عمراً مثلاً وهو خليفة أمير المؤمنين كيف كان بناقه الصحابة ويحدثون ويقولون له هذا ظلم «أتف ما غنمناه بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا» ، ومع ذلك لا يغضب ... نماذج رائعة من أدب الاختلاف.

الاختلاف لدى السلف لا يفضي إلى التنازع والتطاحن ، ولا يفسد للود قضية كما يقول العلماء ، فإن التناحر والتطاحن في الآراء وفي العلم ورمي المخالف في الاجتهادات بالتهم من علامات أهل البدع كالخوارج الذين يكفرون مخالفיהם ، فالمبادرة إلى تكفير المخالف في مسائل للاجتهاد فيها مجال ، من علامات الخوارج ، وسب المخالفين ولعنهم والتشنيع عليهم من علامات الروافض ، فعلى كل مسلم أن يتأدبو بهذه الآداب ، على كل مجتهد ، على جميع أهل العلم أن يتأدبو بها بهذا الأدب السلفي إن كانوا وقعوا في مسلك أهل البدع من التشنيع على المخالفين ورميهم بالتهم وتبعيدهم وتكفيرهم وبسبهم والتشنيع عليهم ، فعليهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إلى الله ويعودوا إلى منهج السلف.

أما أهل العلم والفقه والاجتهاد من علمائنا على مختلف مستوياتهم ودرجاتهم أكابرهم وأصاغرهم فإننا نطالبهم بأن يواجهوا النوازل التي وقعت بنا والواقعات التي استجدت علينا ، وما أكثرها وما أخطرها مثلاً ، نحن نواجه الآن في مجتمعنا هجمة علمانية ، هناك من يحاولون علمنة هذا المجتمع ومحاولة صبغه بصبغة العلمانية ، فيدعون لفصل بين الدين والحياة وبين الفقه والمجتمع ، وهذه نازلة خطيرة جدت في الأمة فالمجتمع المسلم يسير بخطى حثيثة إلى العلمانية بضغوط خارجية وجهود داخلية ، أناس يتكلمون بالسنن وهم من جلدكم وهم بينلون النفس والنفيس في سبيل تخريب هذا المجتمع المسلم ، وهذا من أعظم النوازل ، فعلى علمائنا أن يواجهوا هذه النوازل بعقلية ناضجة كعقلية السلف ، عقلية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، عقلية واعية عميقة تتقى الله عز وجل ، فإن من أعظم ما يواجه به هذا المقام أن يبين العلماء الحكم الشرعي لا يخافون في الله لومة لائم ، والحمد لله أنه لا تزال في مجتمعنا بقية من علماء يقولون الحق ولا يخافون لومة لائم ، نسأل الله أن يثنيهم ويجزيهم عنا خير الجزاء.

العالم أو المفتى الذي لا يتقى الله في بيان الحكم ، وينافق العلماء ، لا يصلح للاجتهاد ، وهو والجاهل سواء لأنه أخطر من الجاحد ، العالم يقتدى به فإذا لم يتق الله في بيان حكم الشرع يورد الأمة موارد الهلاك ، وهناك علماء للأسف ينافقون الحكم أو يخافون منهم ولا يبينون الأحكام على وجهها الصحيح ، ومن أعجب الأمثلة على ذلك مفت في بلد مسلم أفتى بإباحة الربا إذا مارسته الدولة وتحريمه إذا مارسه أفراد الشعب ، انظر إلى أي حد يصل النفاق ومداهنة الحكم ، هذا فقيه نعم ولكنه من فقهاء السلطان له سلف ، ذلك المنافق الذي رأى حماماً يلعب به الخليفة فكتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحديث الصحيح لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل ، فزاد أو جناح هذا مثل ذاك فأمثال هؤلاء موجودون نسأل الله عز وجل أن يكفيانا شرهم.

هوامش:

(١) الحديث بنصه البخاري ، ج ١ ، ص ٢١٩.

(٢) مسلم ، ج ٢ ، ص ١٠٩٩ ، كتاب الطلاق ، ح ١٤٧٢.

دراسات شرعية نظارات في علم أصول الفقه: الصعوبة والعلاج

محمد عثمان الأخضر شوشان

أصول الفقه أحد العلوم الإسلامية الأصلية توالت المؤلفات فيه عبر التاريخ ، إلا أن ظاهرة صعوبة هذا العلم ملموسة ، وهذه الرؤية من الكاتب محاولة لعلاج صعوبة هذا العلم.

البيان

تعتري أصول الفقه جملة من المشكلات في جوانب مختلفة منه في مضمونه أحياناً ، وفي منهج دراسة مسائله ، ومناقشة بعضها ، وفي الأسلوب الذي سطر به أحياناً ، وفي منهج تدريسه أحياناً أخرى ، وكلها مشكلات تسببت في قلة الاستفادة من هذا العلم المهم ، لذا فهي بحاجة ماسة للحلول والعلاج من قبل المتخصصين فيه عسى الله عز وجل أن ينفع بها. وأحاول في هذا المقال إن شاء الله تسلط الضوء على إحدى هذه المشكلات ، محاولاً طرح بعض الحلول لها حسب ما أراه مناسباً.

تمثل هذه المشكلة في منهج تدريس أصول الفقه ، تلك التي نتج عنها قضيتان خطيرتان: الأولى عدم فهم أصول الفقه ، والثانية عدم معرفة كيفية الاستفادة منه بعد ذلك.

أما القضية الأولى: فإن طلبة العلم الشرعي في الجامعات والمعاهد المتخصصة بله من هم دونهم يشكون من صعوبة فهم مادة «أصول الفقه» وتؤكد نتائج الاختبارات هذه الدعوى في كل فصل دراسي.

أما القضية الثانية: فإن هناك عدداً لا يأس به من طلبة العلم إما لأنهم رزقوا فهماً قوياً ، أو لأنهم بذلوا جهداً مضاعفاً قد أدركوا وفهموا كثيراً من مسائل هذا الفن ولكنهم للأسف الشديد لا يستفيدون من هذا شيئاً في ممارساتهم العلمية ، وذلك لعدم معرفتهم بكيفية الاستفادة من هذا العلم! إن حل هاتين المشكلتين موزع في نظري بين أطراف ثلاثة هي:

١- طالب العلم.

٢- معلم مادة أصول الفقه.

٣- المؤسسات العلمية والتعليمية المهتمة بتدريس هذه المادة والاستفادة منها.

أولاً طالب العلم:

إن أهم مسألة ينبغي أن تتوفر لدى طالب العلم تجاه هذا الفن بعد سلامتهقصد هي إدراكه للغرض من دراسته والفائدة المرجوة منه ، ويحصل ذلك بمطالعة ما سطره العلماء في هذا الخصوص ، ويمكن جمع ذلك في ثلات نقاط:

١- تحصيل ملحة الاستبطاط للأحكام الشرعية العملية من أدلةها التفصيلية وملحة الاستبطاط هي رأس مال الجهد كما قال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني.

٢- استنباط تلك الأحكام على وجه الصحة حسب نظر المجتهد لا في واقع الأمر ، وهذا متبعى ومطلب كل مجتهد صادق مخلص ، ورفع الإثم عنه عند الخطأ منوط بسلوكه المنهج القويم في الاجتهاد أي اعتماده قواعده الشرعية ، التي هي أصول الفقه.

٣- معرفة سبب الاختلاف في جملة من الفروع الفقهية المختلف فيها بين العلماء إذ إن الاختلاف في القاعدة الأصولية قد يسبب اختلافاً في أحكام الفروع الفقهية ، مما يمهد ويختصر للطالب أسباب الترجيح.

٤- استنباط أحكام النوازل باستخدام دليل القياس أو مقاصد الشريعة.

كما على الطالب أن يستحضر أن أول من ألف في هذا الفن تأليفاً مستقلاً إمام جليل من أئمة أهل السنة والجماعة هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمة الله مما يؤكد توجيهه مسؤولية هذا العلم إلى من ينتهيون إلى هذا المنهج منهج السلف الصالح تعلماً وتعلماً واستقدادة وتجديداً.

إن إدراك طالب العلم لأهمية هذا العلم من خلال الوقوف على أغراضه وفوائده ، ثم مقارنة ذلك بحال كثير من تصدروا لفتياً والاجتهاد في أيامنا هذه سواء أكانوا من يدعون الالتزام بالنصوص الشرعية أو من يغلبون النظرة العقلية المصلحية على النصوص الشرعية على حد سواء ، وما ترتب على هذا من مفاسد ، لمن أهم أسباب تنشيط الهمة والجد والاجتهاد لفهم مسائل هذا العلم مهما كانت التضحيه كبيرة.

ثانياً معلم مادة «أصول الفقه»:

تنظم الاقتراحات المتعلقة بالمعلم في هذا الموضوع في مقدمتين: المقدمة الأولى: عُرف أصول الفقه باعتباره لقباً بأنه (القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلةها التفصيلية)(١) ، وقد عُرِفت القاعدة بأنها (حكم كلي ينطبق على جزئياته ليتعرف أحكامها منه كقولنا: كل حكم دليل على القياس فهو ثابت)(٢).

المقدمة الثانية: هذه القواعد إنما يتوصل إليها لتكون عند عملية الاستنباط (مقدمة كبرى في القياس الحيلي أو ملازمة في القياس الاستثنائي ، بعد أن يقدم لها بمقدمة صغرى موضوعها جزئي من جزئيات تلك القاعدة ودليل تفصيلي يعرفه الفقيه بيسر وسهولة كالأمر بالصلاحة في قوله تعالى: ((أقيموا الصلاة)) فيكون بذلك قياساً منطقياً هذه كيفية:

المقدمة الصغرى: الصلاة مأمورة بها في قوله تعالى: ((أقيموا الصلاة)) وهذا دليل تفصيلي.

المقدمة الكبرى: كل مأمورة به واجب (وهذه أصولية أو دليل كلي إجمالي).

النتيجة: الصلاة واجبة (وهذه النتيجة حاصلة بإسقاط الحد الأوسط المكرر).

فمن هاتين المقدمتين ندرك أن أصول الفقه في الاصطلاح هو القواعد الكلية نحو (كل أمر للوجوب) التي يتوصل بها المجتهد إلى التعرف على الأحكام الشرعية الفرعية (كوجوب الصلاة) من الأدلة التفصيلية التي هي في هذا المثال قوله تعالى: ((أقيموا الصلاة)) ، وهكذا...(٣).

الاقتراحات المترتبة على هاتين المقدمتين:

١- قيام مدرسي أصول الفقه بتدریسه على أساس ما عرف به سابقاً ، أي على شكل قواعد (أحكام كلية... «بحيث تكون القاعدة شكلاً ومضموناً هي موضوع الدرس يتناولها المدرس بالشرح والتفصيل).

٢- قيامهم كذلك بتدريب الطلاب على كيفية الاستقدادة منها عند التطبيق على الصفة المذكورة آنفاً ، مع ذكر الأمثلة الصحيحة الواقعة في مصنفات أهل العلم.

ويطلق على هذا المنهج (تخريج الفروع على الأصول) يستعين المدرس بما ألف فيه ، ومن ذلك: «أصول الشاشي» ، « تخريج الفروع على الأصول للزنجناني » ، « مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول للتلمذاني »، التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للاسنوي» ، « القواعد والفوائد الأصولية لابن الحام » ، وكلها كتب مطبوعة وفي متداول الجميع.

ولهذين الاقتراحين فوائد منها:

- ١- سهولة حفظ القاعدة واستذكارها عند الحاجة إليها باعتبارها المقصود الأول من الدرس.
- ٢- يسر الاستفادة منها عند التطبيق كما هو مبين في ترتيب المقدمات بخلاف ما لو عرضت على شكل بحث مبسوط.

وبهذا إن شاء الله يجد الطالب نفسه أمام سبيل لا غموض فيه ، ولا صعوبة للتوصل إلى حكم شرعي في مسألة معينة ، ولم يبق منه سوى بذل الجهد في تحديد الأدلة المتعلقة بمسألته.

ثالثاً المؤسسات التعليمية والعلمية:

أرى أن المطلوب من هذه المؤسسات للمساهمة الجادة في حل هذه المشكلة جملة من الأمور:

- ١- عقد ندوات وجلسات يدعى إليها المتخصصون في هذا العلم لتشخيص المشكلة، ومحاولة تقديم حلول عملية لها.

٢- المسارعة في تنفيذ ما توصل إليه أهل الاختصاص في هذا الشأن ونشره تعميمياً للفائدة.

٣- تكليف الباحثين في الدراسات العليا من تتعلق رسائلهم بالأحكام بوضع فهرس لقواعد الأصولية المذكورة في بحوثهم حتى يتمكن غيرهم من التعرف على كيفية استفادتهم من تلك القواعد.

٤- على المؤسسات العلمية التي تقوم بإصدار الفتاوى والبحوث وضع فهرس لقواعد الأصولية المذكورة في مجلاتها الدورية للغرض السابق نفسه.

غير أنه بعد قراءة هذه المقترنات يتبدّل إلى الذهن سؤال مهم وهو: هل القواعد الأصولية كلها قد صيغت على شكل قواعد؟ وهل هذه الصياغة موحدة بين الأصوليين؟
لا شك أن هاتين المسألتين في غاية من الأهمية بالنسبة لزماننا هذا على الأقل ، إذ قد لا تكون بهذه المثابة عند الأوائل لا عبارات كثيرة ، فليس سهلاً أن يقوم أي طالب أو باحث بصياغة قاعدة من بعد إدراكه للدرس ، إذ يتطلب هذا العمل الدقيق إحاطة بجميع متعلقات القاعدة، وقد لا يتوفّر هذا في غير أصحاب التخصص المتمرسين من أساتذة ومجتهدين.

لذا فإنني أقترح أن تقام ندوات وجلسات علمية يدعى إليها هؤلاء لوضع صيغ موحدة لقواعد الأصولية ، ثم نشرها ليتداولها الجميع ، علماً بأن علماءنا الأوائل قد كفوا مؤونة صياغة جملة منها ، وبخاصة القواعد المختلف فيها ومظانها كتب التخريج والأصول وأسباب الاختلاف وبعض كتب القواعد الفقهية ، وكان من منهجهم في صياغتها أن تذكر القاعدة بصيغة السؤال إن كانت مختلفة فيها وبصفة التقرير إن كانت متفقاً عليها.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذه الاقتراحات ، وأن يرزقنا الإخلاص والتوفيق في العلم والعمل.

هوامش:

(١)شرح مختصر المنتهي ١٨/١.

(٢)التلویح للتفتازاني ١/٢٠.

(٣)أصول الفقه للباحثين ١٢٠.

د. محمد عبد الله الشباني

في الحلقة السابقة تطرقنا إلى جانب من معالجة الإسلام لجانب من جوانب المشكلة الاقتصادية ، وهو جانب الندرة ، وفي هذه الحلقة سوف نتطرق إلى الجانب الآخر لمعالجة مشكلة الندرة ، وهذا الجانب يتعلق بدور الدولة في معالجة الندرة من خلال كيفية استغلال الموارد الطبيعية وتنميتها ، أي دور الدولة المسلمة في التأثير على الإقلال من تأثير قانون الندرة على المشكلة الاقتصادية . إن من مهامات الدولة أن تعمل على البحث عن المصادر الطبيعية ، فقد أشرنا في الحلقة السابقة إلى الحديث الذي رواه أبو يعلى في مسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم- الذي جاء فيه: (اطلبوا الرزق في خبايا الأرض) (١) ، ففي هذا الحديث توجيه نبوي للأفراد وللحاكم المسلم باعتباره مسؤولاً عن الأمة ، والقاعدة التي يتبعها التشريع الإسلامي هي مخاطبة الأمة فصيغت الأوامر كما جاءت في القرآن الكريم موجهة لأفراد الأمة بأجمعهم لكن مسؤولية التنفيذ تقع على الحاكم نفسه ، فمن ذلك قوله تعالى: ((ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب)) [البقرة: ١٧٩] ، وقوله تعالى: ((والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله)) [النور: ٢] ، كما يلاحظ ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة حيث يتوجه الخطاب إلى الأمة ، لكن جهة التنفيذ هم ولادة الأمر ، وعليه فإن التوجيه النبوي في هذا الحديث يقتضي أن تقوم الدولة بالبحث عن مصادر الرزق المخبوعة في باطن الأرض.

الحديث الشريف يوضح العلاج:

إن من وسائل علاج ندرة الموارد وفق ما يشير إليه ذلك الحديث الأمور التالية:

- ١- ضرورة بذل الجهد من قبل الأمة ممثلة في الحاكم المسلم بالعمل على البحث عن الموارد الطبيعية ، وتسخير القوى العاملة من الأمة بالعمل على بذل الجهد والمشقة ، فصيغة «اطلبوا» توحى بأهمية الحصول على موارد طبيعية جديدة ، أو اكتشاف مجالات جديدة في استغلال الموارد الطبيعية المتاحة ، مما يقتضي بذل كل جهد ممكن عضلي أو عقلي وبالتالي فإن مشكلة الندرة لن تحل بدون بذل الجهد والعمل ، فالله قد تكفل برزق جميع مخلوقاته ، ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ((وما من دابة إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها)) [هود: ٦] ، لكن الحصول على هذا الرزق يستدعي بذل الجهد ، كما أنه لا يقتضي كثرة الكمية المتاحة ، ولكن اكتشاف مختلف مجالات الاستخدام للموارد المتاحة يؤدي إلى إشباع حاجات الإنسان.

- ٢- إن مفهوم الرزق كما أشار إليه الحديث لا يقتصر على شيء دون آخر بل يشمل كل شيء يحقق إشباع الحاجات سواء أكان الأمر يتعلق بالإنتاج الزراعي ، أو المعدنى ، أو غير ذلك ، وبالتالي ضرورة قيام الأمة ممثلة في ولی الأمر بالتنفيذ عن مصادر الرزق ، إذ أن المصادر مخبوعة في باطن الأرض ، فإذا تقلصت أو قلت الموارد المتاحة على وجه الأرض فلا يعني ذلك أن الرزق قد انقطع ، والاكتشافات العلمية المعاصرة أكبر دليل على أن الله يفتح في كل يوم على البشر مصادر جديدة من الرزق سواء أكان ذلك من خلال العثور على موارد جديدة ، أو اكتشاف كميات إضافية ، أو اكتشاف مجالات جديدة لاستخدام الموارد المتاحة ، التي تساعد على إشباع متطلبات الإنسان.

- ٣- يوجه الحديث الانتباه إلى حقيقة مهمة أغفلها المسلمون ولم يهتموا بها وهذه الحقيقة هي أن الأرض مملوئة بالخيرات ، وأن المشكلة تكمن في الإنسان نفسه ، فالأرض تمتلك في باطنها خيرات كثيرة ، وما على الإنسان إلا أن يُعمل فكره ، ويبذل جهده في البحث عن مصادر الرزق في باطن الأرض ، ولن يكون هناك عجز في الموارد لتلبية احتياجات الإنسان إلا إذا كسل الإنسان عن البحث

عنها ، أو انحرف فكره وسلوكه في استغلال ما أتاحه الله له من خيرات فصرفها في مجالات مضررة تعود بالشر عليه ، وإن الممارسات المعاصرة من قبل الدول لها أكبر دليل على أن العجز ليس في الموارد بقدر ما هو في نوعية استغلال الجهد في ما يعود بالضرر على الإنسان نفسه.

ضرورة استغلال الموارد المتاحة:

إن من المسببات لإيجاد الندرة في الحاجات القصور في استغلال الموارد المتاحة ، ولهذا فإن من المهام الأساسية التي ينبغي على ولاة الأمر من المسلمين الاهتمام بها هو استغلال الموارد المتاحة ، وعدم تعطيلها ، تلك التي يمكن من خلالها سد حاجات المجتمع ، وإن ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم- مع يهود خيبر لإشارة واضحة الدلالة على ضرورة استغلال الموارد المتاحة ، فقد روى البخاري والبيهقي في سننه وأحمد والترمذى وأبو داود والنمسائى وابن ماجة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- أعطى خيبر لليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها(٢) ، وفي رواية للنسائى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها على أن يعملوها من أموالهم وأن لرسول الله صلى الله عليه وسلم- شطر ما يخرج منها ، وفي حديث آخر رواه البيهقي بسنده عن عبد الله بن أبي بكر قال: جاء بلال ابن الحارث المزني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم- فاستقطعه أرضاً فقطعتها له طويلة عريضة ، فلما ولـي عمر قال له: يا بلال إنك استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم- أرضاً طويلة عريضة أقطعها لك وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليمنع شيئاً يسألـه ، وإنك لا تطبق ما في يديك ، فقال: أجل قال انظر ما قويت عليه منها فأمسـكه وما لم تطق فادفعـه إلينـا نقسمـه بين المسلمين ، فقال: لا أفعل والله شيء أقطعـعنيـه رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، فقال عمر: والله لنفعلـ ، فأخذـ منه ما عجزـ عن عمارـته فقسـمه بين المسلمين(٣).

من هذين الحديثين نرى اهتمام الإسلام وحرصه على معالجة ندرة الحاجات من خلال العمل على استغلال المـاتـاحـ منها ، والعمل على الاستفادة القصوى من الموارـدـ المتـاحـةـ وـعدـمـ تعـطـيلـهاـ ، فالـرسـولـ صلىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـدـمـ إـلـىـ عـلـاجـ النـقـصـ فيـ الأـيـديـ العـاـمـلـةـ الـقـادـرـةـ عـلـىـ الـحـرـثـ وـالـزـرـاعـةـ بالـاسـتعـانـةـ بـالـيـهـودـ عـلـىـ أـنـ يـكـونـ لـلـمـسـلـمـينـ شـطـرـاـ مـاـ تـرـجـهـ الـأـرـضـ ، وـصـنـعـ عـمـرـ وـهـوـ وـلـيـ أمرـ الـمـسـلـمـينـ معـ بـلـالـ المـزـنـيـ باـسـتعـادـتـهـ مـاـ لـمـ يـسـتـطـعـ بـلـالـ عـمـارـتـهـ مـاـ تـمـ إـقـطـاعـهـ إـيـاهـ مـنـ رـسـولـ اللهـ صـلـيـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، يـؤـكـدـ حـقـيقـةـ أـنـ مـعـالـجـةـ النـدـرـةـ فيـ أـحـدـ جـوـانـبـهاـ هوـ الـعـلـمـ عـلـىـ استـغـالـ الـمـاتـاحـ مـنـ الـمـصـادـرـ ، وـتـدـخـلـ الـدـوـلـةـ حـسـبـ سـلـطـتـهاـ لـتـنـفـيـذـ ذـلـكـ ، وـلـهـذـاـ نـجـدـ الـوـاقـعـ السـيـئـ لـلـمـجـتمـعـاتـ إـلـاسـلامـيـةـ فـيـ عـجـزـهاـ عـنـ اـسـتـغـالـ مـوـارـدـهاـ وـتـعـطـيلـهاـ سـوـاءـ أـكـانـ ذـلـكـ مـنـ خـلـالـ التنـظـيمـاتـ وـالـتـشـريعـاتـ الـمـالـيـةـ وـالـإـدـارـيـةـ الـمـعـيـقـةـ لـلـمـبـادـرـاتـ الشـخـصـيـةـ ، أـوـ مـنـ خـلـالـ تـبـنـيـ مـناـهـجـ فيـ التـخـطـيـطـ الـاـقـتـصـاديـ وـالـاـجـتـمـاعـيـ تـسـاعـدـ عـلـىـ تـعـطـيلـ الـمـوـارـدـ وـجـعـلـهاـ فـيـ حـالـةـ عـجـزـ دـائـمـ.

تدخل ولـيـ الأمرـ لـلـمـصلـحةـ الـعـامـةـ:

إن من واجبات الدولة في حالة تعطل مورد من الموارد الطبيعية بسبب عدم قدرة الشخص على التنفيذ لنقص في قدراته المادية أن تتدخل في تنظيم ذلك ، ففي عمل عمر رضي الله عنه باستعادة ما تم إقطاعـهـ وـاعـادـهـ تـوزـيعـهـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ ، تنـفـيـذـ لـهـذـاـ جـانـبـ منـ حـيـثـ عـدـمـ تـرـكـ الـأـرـضـ غـيرـ مستـغـلـةـ وـلـهـذـاـ فـيـ إـنـ مـنـ مـسـؤـلـيـةـ الـدـوـلـةـ وـضـعـ الـأـنـظـمـةـ الـإـجـرـائـيـةـ الـتـيـ تـسـاعـدـ عـلـىـ اـسـتـغـالـ الـمـاتـاحـ مـنـ الـمـوـارـدـ الطـبـيـعـيـةـ وـغـيرـهـاـ مـنـ يـعـجـزـ عـنـ اـسـتـغـالـهـ بـأـحـدـ عـوـاـمـلـ الـإـنـتـاجـ فـيـ حـالـةـ تـوقـفـ الـمـصـانـعـ الـإـنـتـاجـيـةـ لـعـدـةـ قـدـرـةـ أـصـحـابـهاـ عـلـىـ الإـنـفـاقـ عـلـيـهـاـ ، فـإـنـ عـلـىـ ولـيـ الـأـمـرـ التـدـخـلـ وـعـدـمـ تعـطـيلـ هـذـهـ الـمـوـارـدـ ، فـقـدـ روـيـ أـبـوـ دـاـوـدـ بـسـنـدـهـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـحـمـيـدـيـ أـنـ عـامـرـ الشـعـبـيـ حدـثـهـ أـنـ رـسـولـ اللهـ صـلـيـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ:ـ (ـمـنـ وـجـدـ دـاـبـةـ قـدـ عـجـزـ عـنـهـ أـهـلـهـاـ أـنـ يـعـلـفـوـهـاـ)

فسببوها فأخذها فأحياناً فهي له «(٤)» ، ففي هذا الحديث إرشاد لولي الأمر أن يتدخل في حالة عجز المالكين عن استغلال عنصر من عناصر الإنتاج ، وذلك باستغلاله وفقاً للقاعدة الشرعية «لا ضرر ولا ضرار» بحيث يكون لولي الأمر وضع القواعد الإجرائية التي تساعد على تدخل الدولة في حالة توقف المصانع أو المزارع الكبيرة عن الإنتاج لعجز المالكين عن استغلالها ، مراعاة لمصلحة الاقتصاد العام للدولة، مع مراعاة حقوق المالكين ، بشرط عدم تعطيلها عن المساهمة في زيادة الناتج القومي.

أساليب تنمية الموارد:

إن من مسببات الندرة المرتبطة بالموارد الطبيعية سوء الأسلوب في استغلال الموارد المتاحة ، بحيث تؤدي إلى ضعف وعجز الموارد عن القدرة على الإنتاج وتوفير الاحتياجات ؛ ولهذا فإن طرق وأساليب استغلال الموارد الطبيعية يلعب دوراً في اض محلل وتقلص القدرة الإنتاجية للمورد الطبيعي ، ولقد حرص الإسلام على هذا الجانب ، ووردت أحاديث عدة توجه الانتباه إلى هذا الجانب ، وإن على قادة المجتمع المسلم الاهتمام بهذا الجانب ، ومن تلك الأحاديث ما رواه البيهقي في سننه عن علي بن الحسن عن أبيه عن جده قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم- المدينة فقال: (يا عشر قريش إنكم تحبون الماشية فأقلوا منها ، فإنكم بأقل الأرض مطراً ، واحرثوا فإن الحرش مبارك أكثروا فيه من الجماجم(٥)) ، وفي حديث آخر رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب أنه قال: نهى عن الحكرة بالبلد ، وعن التلقي وعن السوم قبل طلوع الشمس ، وعن ذبح قني الغنم(٦) ، وقد روى أبو داود عن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: (من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار) (٧).

من هذه الأحاديث يمكن فهم السياسة التي يوجه الإسلام أتباعه إليها فيما يتعلق بأساليب المحافظة على الموارد الطبيعية ، بالعمل على المحافظة على الغطاء النباتي ، وعدم قطع أو إزالة الغطاء الشجري ، والتعامل مع الموارد المتاحة حسب طبيعة البيئة ، واستغلال الموارد وفقاً للظروف البيئية ، ونلاحظ ذلك من توجيهه رسول الله صلى الله عليه وسلم- للمهاجرين من قريش بتغيير نمط الاستثمار من تربية الماشية التي تعتمد على الرعي إلى الحرش ، حيث أن طبيعة البيئة لا تسمح لهذا النوع من الاستغلال بخلاف البيئة في مكة التي تقوم على الرعي وليس على الزراعة ، كما أن الزراعة في منطقة المدينة أجدى وأكثر فائدة ، ولهذا فإنه من الواجب استخدام البذائل والخيارات عند التعامل مع الموارد الطبيعية ، وعدم استنزاف الموارد المنتجة ، والإبقاء عليها من أجل زيتها كما يرشد إلى ذلك الحديث الذي منع من ذبح إناث الغنم لما في ذبحها من استنزاف لمورد من الموارد المتاحة لإشباع حاجات الإنسان ، وينطبق هذا على أي مورد من الموارد المتاحة للإنسان بضرورة العناية بتنمية الموارد الطبيعية وزيادتها من خلال حسن الاستغلال.

إن ما توحى به جميع الأحاديث التي أشرنا إليها من توجيهات ، لها مؤشر قوي على مدى حرص الإسلام على معالجة جانب ما يحدث من عجز في توفير الاحتياجات الفردية من خلال معالجة مسببات الندرة المرتبطة بالموارد الطبيعية.

الهوامش :

(١) ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد أن ابن حبان ضعفه لأن فيه هشام بن عكرمة ولكن المعنى ودللات النص يمكن أخذها من عموم نصوص أخرى.

(٢) فتح الباري ، ج ٥ ، ص ١٩ ، باب المزارعة مع اليهود ح ٢٣٣١.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، والدارمي.

(٤) رواه أبو داود ح ٣٤٥٦ ، صحيح سنن أبي داود ح ٢٩٥٠.

- (٥) الجمام نوع من المجسمات تشبه الرؤوس توضع بين الزروع والثمار لمنع الطير من أكلها.
(٦) قفي الغنم أي التي تقتى للدر والولد ، واحدتها قفوة.
(٧) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ج ٢ ، ص ٧٩٢ ، ح ٤٢٩٩ ، وصححه الألباني.

خواطر في الدعوة .. سددوا وقاربوا..

محمد العبدة

جبل الإنسان على النقص والضعف ، فربما أبرم اليوم أمراً يفكر غداً في نقضه أو إصلاحه وتعديله ، وعندما يضع البشر قانوناً من عند أنفسهم لتسهيل شؤون حياتهم ، سرعان ما يكتشفون أن فيه ثغرات لا بد من إصلاحها ، أو أنه يكتبهم بجزئية من جزئياته ، ومن ثم يبدأ الالتفاف عليه ، أو تفسيره بما يتاسب مع أغراضهم.

نقول هذا لأنه عندما أراد المسلمين في هذا العصر ترتيب أمور الدعوة ترتيباً إدارياً ، أخذوا من البيئة التي حولهم ، وكانت هذه (التراثي) بحاجة إلى إعادة النظر بين كل فترة وأخرى ، للبحث عن عيوبها ، وما هي أوجه النقص فيها ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ووجد المسلمين أنفسهم أسرى لقوالب جامدة ، وشكليات صنعتها أيديهم ، لم يستطيعوا التخلص منها ، وكان الواجب أن يستفيدوا من صياغة التشريع الإسلامي كما أنزله الله سبحانه وتعالى ، لأننا سجد فيه دائماً مساحة ومرونة لزيادة العمل ، كما نجد فيه حداً أدنى وحداً أعلى ، قال تعالى عن حال الدائن والمدين:
(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) [البقرة: ٢٨٠] والدفاع عن النفس ضد الظلم حق ، ولكن التحمل والمغفرة أجمل: ((ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)) [الشورى: ٤٢] ، ((يسألونك ماذا ينفقون قل العفو)) [البقرة: ٢١٩].

لماذا لم يستقد المسلمين من هذه السنة في تدبیر الخلق ، حتى كان من آثار هذا الجمود والضيق أن عطلت طاقات ، وأهدرت إمكانات؟ فكم من شاب متحمس أو داعية له قدم راسخة لم يستفد منه لأن طرائق العمل لا تستوعب الجميع ، ولم يكتف المسلمين أنهم ضعاف في اكتشاف الطاقات الفاعلة ، بل زادوا على ذلك أنهم خسروا كثيراً من عندهم خير وعلم ، وقراءة في تاريخ الدعوة الإسلامية المعاصرة تنبئك عن العشرات والمئات الذين لم تستوعبهم الدعوة ، وربما وجدوا أنفسهم أمام طريق مسدود ، فاختار بعضهم القيام بجهود فردية ، ومنهم من أصابه الفقر وآثر العزلة.

يقول بعض المفكرين: «إن من أسباب تقدم الإنجليز على من سواهم من الشعوب الأوروبية في بداية نهضتهم هذه ، المرونة في تنظيماتهم وكل شؤون حياتهم، فنراهم دائماً يتذرون مساحة للتحرك من خلالها ومحاولة التخرج والاجتهاد».

هذا ما توصلت إليه عقولهم البشرية ، أما المسلمين الذين يحملون فكرة التجديد فهم يستهدون بالسيرة النبوية وأسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم - في معاملة صحبه الكرام، ويتأملون أسرار نزول القرآن منجماً خلال ثلاث وعشرين سنة ، وكيف تربى المسلمون من خلال هذا التنزيل ، وإذ فعلوا هذا فإنهم سيصلون إلى نتائج طيبة بإذن الله.

أقوال منسية حول «التغريب»*

د. أحمد إبراهيم خضر

منذ العشرينيات من هذا القرن والباحثون الغربيون المتخصصون منشغلون بقضايا تغريب العالم الإسلامي بعامة ، وما يسمونه بمنطقة الشرق الأوسط خاصة ولا يكاد يخلو أي كتاب أو أي مقالة تتعرض لحياة المسلمين من إشارة هنا وأخرى هناك لهذا التغريب ، إلى الدرجة التي حدت بهؤلاء الباحثين إلى القول:

«إن مظاهر التغريب عند شعوب الشرق الأوسط مشاهدة تماماً وبدرجة كافية وإنه لمن السهل عليك أن تضع قائمة طويلة توضح لك كيف أن هذه المظاهر التقليدية التي كانت سائدة منذ مائة أو مائة وخمسين عاماً قد اجتاحتها رياح التغيير ، واستبدلتها بقيم أدخلها الغرب».

لم يكن تغريب المسلمين مسألة مجرد الاحتكاك بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ثم متابعة آثار هذا الاحتكاك على الإسلام والمسلمين، إنما كانت سياسة موجهة ومدروسة تستند إلى تنظير خاص ، يعتمد في جزء كبير منه على تجارب الاحتكاك بين الإسلام والغرب في الماضي ، وعلى تجربة الثورة الصناعية وما تلاها من آثار على البناء الاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي الغربي ، ثم على تحليل مسألة اتساع الهوة بين هاتين الثقافتين بعد الثورة الصناعية؛ بسبب الاستقرار الثقافي في بلاد المسلمين، وتلك التراكمات التي أخذت مكانها في الغرب.

نظيرية ومكاسب:

استندت عملية تغريب المسلمين إلى ما يسمى بنظرية (تشويش الأحكام القيمية) أو إيقاع الاضطراب في هذه الأحكام ، وتقوم هذه النظرية على الأساس التالي:

«هناك توازن وتوافق بين عناصر ثقافة المجتمع التقليدي المستقر جيداً ، بمعنى أن القيم التي تحكم وتسود هذا المجتمع تتسبق وتؤيد واقعه المعاش ؛ ولهذا تميز ثقافة هذا المجتمع بالتماسك والتوازن الداخلي.

ويمكن للواقع الثقافي أن يغير وأن يستعيض عناصر من ثقافة أخرى مخالفة بصورة أكثر سرعة من استئمارة القيم الثقافية ، ولهذا يصعب حدوث تغير في القيم في الوقت الذي يسهل فيه حدوث تغير في الواقع.

وعندما يحدث اتصال بين ثقافتين مختلفتين ، فيدخل واقع جديد إلى إدراهما يمكن هنا أن يتحطم التوازن القديم ، وتتغير القيم الثقافية بتغيير الواقع الذي كانت تحكمه وإن احتاج الأمر إلى بعض الوقت ، بسبب هذه الصلة العاطفية التي يحيط بها المجتمع ثقافته الخاصة ، ومقاومته لإدخال أي محتويات ثقافية غريبة أو جديدة.

وهذا لا يعني بالطبع أن مكونات الواقع في ثقافة ما يمكن أن تزرع في ثقافة أخرى دون أن تسبب تغيرات في قيمها ، أو أن قيم ثقافة ما يمكن أن تفرض على الثقافة الأخرى دون أن تحدث تغيرات في مكونات هذه الثقافة ؛ لأن التناسق المحكم والاعتماد المتبادل بين مكونات الواقع والقيم الثقافية يجعل من غير الممكن أن تدخل تغيرات في واحدة منها دون أن تحدث تغيرات في الأخرى».

بهذه النظرية دخل الغرب إلى حياة المسلمين ساعياً بمختلف طاقاته الثقافية والعسكرية والاقتصادية والتقنية إلى إدخال واقع جديد يخص ثقافته هو على ثقافة المسلمين؛ ليحطّم التوازن القائم بين واقعها وقيمها ، ويغير من قيمها حتى تصبح مناسبة لواقع الجديد الذي أدخله عليها ، ولقد حقق الغرب هنا مكاسبين مهمين: أولهما أنه بتحطيمه لهذا التوازن المشار إليه أوجد هوة عميقة بين الإسلام والمسلمين ، ودمر الصلة العاطفية التي تربط المسلمين بإسلامهم والمكسب الآخر: أنه

وهو يخترق هذه الهوة ليملأ الفراغ المترتب عليها حرك الأمور بالطريقة التي تمكّنه من تحقيق مكاسب مادية ضخمة على حساب هذا الكيان المنهاز.

سنقتصر في مقالتنا هذه على عرض وتحليل ثلاثة من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين فدمر التوازن القائم في ثقافتهم.

أولاً صنع هيبة الغرب:

لم يكن هذا الواقع موجوداً من قبل ، كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم تقوم على أساس «الإسلام والكفر، وجاء الغرب وأدخل واقعاً جديداً..» وبعد أن تمكن من إيجاد موطئ لأقدامه في بلاد المسلمين، أحاط نفسه وأهله بهالة من الهيبة والاحترام ، وفرض نفسه على النظام الاجتماعي القائم في بلاد المسلمين، وتقلد الوظائف القيادية، وساهمت حكومات بلاد المسلمين العلمانية في تدعيم هذه الهيبة ؛ بوضع أبناء المستعمر في مواقع قيادية مهمة وسمحت لهم بالحضور إلى مناسبات وطنية وغير وطنية ، لا يدعى إليها عادة إلا كبار رجالات الدولة وعليه القوم فيها.

وزاد الغرب من هيبته في عيون المسلمين بما أدخله عليهم من صناعات وتقنيات ومتكنولوجيا ومعرفة في ميادين مهمة انفرد بها ، وكان نتيجة ذلك أن ظهر الغربيون للمسلمين على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.

وهذا تغيرت القيم فأصبح الغرب وأهله هدفاً مرغوباً يسعى بعض المسلمين للانتفاع به ، كما ينتفعون بصناعاته ومنتجاته ، وسهلت هذه الهيبة عند المسلمين طريق محاكاة أسلوب الحياة والسلوك والأخلاقيات والاتجاهات الغربية ، ثم جاء الانهيار الكبير حينما قلد المسلمون الغربيين في فتورهم نحو دينهم وعدم مبالاتهم به وهو عين ما كان يهدف إليه الغرب.

يقول (روفائيل باتاي) أستاذ علم الإنسان في (دوبسيي كوليج) بفيلايدلفيا وجامعة كولومبيا في الخمسينيات من هذا القرن:

«... بينما تكشف لنا البدايات التقنية للتغريب عن هذا النجاح العالمي الذي حققه ، تأتي هناك عوامل أخرى أبرزها (نظام الهيبة الجديد) الذي تسرب الغربيون عن طريقه إلى قطاعات الناس المختلفة ، وتمكنوا من السيطرة والرقابة على الوظائف المهمة ، وفرضوا أنفسهم على النظام الاجتماعي ، وظهروا للناس على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.

ليس من السهل أن نحل المكونات المتعددة التي تصنع الهيبة الغربية ، لقد كان عنصر القوة هو العنصر الأكثر أهمية في أيام الاستعمار الأوروبي ، إلا أن هذا العنصر قد استبدل الآن بمزيج متعدد المكونات: مثل الثروة ، وتملك الآلات والمعدات الغربية ذات الهيبة ، أو المعرفة الخاصة في ميادين ذات أهمية متزايدة كالطلب والزراعة وغيرها ، وشغل مراكز تحظى بالثقة والنفوذ تمنحها الحكومات المحلية للغربين ، والسماح لهم بالحضور الحر في مناسبات معينة مثلما يسمح تماماً وبدرجة متساوية للقيادات العليا في الدولة. إن الهالة والهيبة التي تحيط بالغربي غافت ثقافته تماماً ، فأصبح اكتساب الثقافة الغربية نتيجة لذلك هدفاً مرغوباً فيه اجتماعياً يفوق بدرجة كبيرة الانتفاع المعترف به لمنتجات هذه الثقافة».

وفي معرض حديثه عن تخلي المسلمين عن مناهجهم التقليدية في الطب واتباعهم لمناهج الطب الحديث يقول (باتاي) في وثيقته:

«إن البحث في الأسباب التي أدت إلى التغيرات في الاتجاهات العقلية التي سادت منذ قرون ، لا يجعلنا نرد هذه التغيرات العقلية إلى الاهتداء المفاجئ إلى التفكير الأكثر عقلانية ولكن إلى (الميل للغرب).. من أين أتى هذا الميل؟!»

تكمّن الإجابة على هذا السؤال في هذه الهيبة للغربيين وثقافتهم ، إن الهيبة التي يتمتع بها كل شيء عربي في عيون شعوب الشرق الأوسط أوجد فيهم نزوعاً إلى محاكاة كل الطرق الغربية ، إنه أدى إلى رغبة خانعة ليس فقط في الحصول على المعدات الغربية ، ولكن رغبة في تقليد السلوك والاتجاهات الغربية كذلك. لقد قبل الطب الغربي ليس لأنه أظهر أفضليّة ولكن لأنّه طب غربي ، تبني سكان الشرق الأوسط ازدراء الغرب للممارسات السحرية وغير العلمية ، ليس لأن ذلك له قيمة فحسب ، ولكن لأنّه أمر مؤكّد جاء به الغرب (المهاب)».

و عن (اللامبالاة) وعدم الاكتراث بالدين التي قلد فيها المسلمين الغرب يقول (باتاي): «... وهذا ظهر على المسرح (الغربي) المحمل بالهيبة والذي يحتل وضعاً أعلى ويحمل ثقافة تستحضر الرغبة في محاكاتها: أن هؤلاء الأجانب لا ينتمون فقط إلى دين مختلف ، ولكن اتجاهاتهم نحو دينهم المسيحي كانت فاترة فكان من الطبيعي أن يقلد هؤلاء المعجبون بالطرق الغربية من مجموع ما قلدوه الفتور نحو الدين واللامبالاة به ، فأظهروا عدم الاهتمام بدينهـم هـم».

ثانياً علمنة الأسرة:

ينظر الغربيون إلى الأسرة المسلمة على أنها أسرة ممتدة ، والأسرة الممتدة في المصطلحات الغربية هي الأسرة التي تتكون بنائياً من ثلاثة أجيال أو أكثر ، وتضم الأجداد وأبناءهم غير المتزوجين والمتزوجين (أو بنائهم) وتضم أحفادهم كذلك.

سعى الغربيون نحو علمنة الأسرة المسلمة، وإلى أن تكون الأسرة الغربية وأشكالها الاجتماعية هي النموذج الجديد الذي يجب على المسلمين الاقتداء به. عمل الغرب على فصل الأسرة المسلمة عن الدين ، وذلك بكسر قبضة الدين من تلك الأسرة الممتدة وتقليص اعتماد الفرد عليها ، والقضاء على تكامله معها وتدمير سلطة الأب على أولاده ، وانفلات الأبناء من الأسرة ؛ حتى ينفلتوا من الجو الديني العام الذي يحيط بالأسرة ، والنظر إلى كل ذلك على أنه ماضٍ يجب أن يرافقه يقول (باتاي):

«في الوقت الذي كان فيه التأثير المباشر للبعثات التنصيرية على الحياة الدينية في الشرق الأوسط تافهاً ، تميز الغرب بموقفه البارد تجاه الدين لأن الدين في الشرق الأوسط في ظل الظروف التقليدية هو طريقة كالية للحياة: التنظيمات المهنية هي تنظيمات دينية ، ارتداء الزي المحلي أمر يقره الدين الطب والتعليم مهنتان ، سلطة الدولة نفسها تقوم على الدين ، ليس هناك ترتيب هرمي في الإسلام كما هو في الكنائس المسيحية ، وليس هناك قسيس أيضاً ، العديد من سكان الحضر منظمون في دوائر دينية ، والكثير من العائلات سواء أكانت في الريف أو الحضر تحظى بتأييد المؤسسات الدينية ، أما أكثر المؤسسات التي تمسك بقبضتها على الفرد فهي الأسرة الممتدة ، اعتماد الفرد على أسرته وتكامله معها مسألة عالية الأهمية في ثقافة الشرق الأوسط إلى درجة أنها تعد ثقافة القرابة، الأسرة هنا مؤسسة دينية يعضدها الدين ، أي أن الدين يعتمد على الأسرة ، وهي بدورها تعضد الدين.

ولما جاء التغريب أحدث انهياراً في السلطة الأبوية ، وحطّم الأسرة الممتدة وغير نظام الاقتصاد العائلي بسبب حركة الهجرة من القرية إلى المدينة إلى نظام اقتصادي يقوم على علاقات غير شخصية ، أصبحت الأسرة الغربية وأشكالها الاجتماعية نموذجاً يحتذى به بين الطبقات العليا والوسطى ، ولم يترتب على هذه الأمور مجرد تغيير جوهري في طبيعة الحياة الأسرية ذاتها فقط ، وإنما ترتب عليها أهم من ذلك كلّه وهو (علمنة الأسرة) وابتعادها عن الدين ، فحينما ينفلت الشاب من قبضة أسرته كان يخلف وراءه هذا الجو الديني الهام الذي كان يحيط به فيصبح رفضه لهذا الجو جزءاً من رفضه للماضي ، ولهذه الأسرة التي تحكم قبضتها عليه.

ثالثاً الحياد الموجه للمشروعات الاقتصادية والفنية الغربية:

هناك الكثير من المشروعات الاقتصادية والفنية الغربية العاملة في البلاد الإسلامية مهمتها الأساسية استنزاف خيراتها وربطها بالغرب، ولقد حرص الغربيون وهم يدخلون هذا الواقع الجديد إلينا هذه المشروعات على تجنب الخوض المباشر في أي موضوعات تتعلق بالعقيدة الإسلامية ، وتركوا هذه المهمة للبعثات التنصيرية بالرغم من تسليمهم بمحدودية عائداتها وللشيوخية لكنهم أي الغربيين أولوا الشيوخية اهتماماً وثقلأً أكبر ، فهي في نظرهم التهديد الحقيقي الخطر على عقيدة المسلمين الذي يمكن أن يطيح بتوازنهم الاجتماعي الثقافي ، وقد تركت الجهود على إقناع المسلمين بأن الشيوخية لا تتطابق مع الإسلام فقط بل إنها التعبير الحقيقي للشكل النقي من الإسلام في أصوله الأولى! ولا يهم هنا أن يكون نظام الحكم القائم في بلاد المسلمين شيوخياً بقدر ما يهم تدمير بنائهم الاجتماعي الثقافي الكلي .
يقول (باتاي):

«تميز مدخل الغرب في الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة بصفة خاصة بالاعتناء الشديد بتجنب الخوض في أي قضايا أيديولوجية ، والتركيز على الناحية الفنية فقط بالنسبة للمشروعات الاقتصادية والفنية وما هو على شاكلتها ، دخلت هذه المشروعات إلى الشرق الأوسط عبر الولايات المتحدة والأمم المتحدة ومعها توجيه أساس عدم التدخل في القيم والأيديولوجيات الخاصة بالبلاد . لكن الأمر يختلف بالنسبة للبعثات التنصيرية ، فليس أمر الكف عن التدخل الأيديولوجي موضع حرية اختيار هنا ، إلا أنه يجب أن يوضع في الاعتبار رد فعل المجتمع الإسلامي لمحاولات المنشورة لتنصيره ، لقد نجحت البعثات التنصيرية في علاج عشرات الآلاف من المسلمين ، كما علمت الآلاف من مرضى الأطفال المسلمين ، وربما أثرت بسلوكياتها ومثلها على النظرة الأخلاقية للعديد من المسلمين ، ورغم ذلك فإن الذين تحولوا إلى النصرانية قلة قليلة . إن الدين في الشرق الأوسط يشغل وضعاً محورياً في بنائه ؛ ولهذا يعتبر التنصير عند المسلمين ردة يترتب عليها أن ينفصل المسلم إذا تنصر عن الأسرة والمجتمع والقيم الثقافية ويتعرض لنبذ أصدقائه والمحيطين به ، وأهم من ذلك كله أن اعتناق الإسلام اعتقاداً ثابتاً لا يهتز والنظرة إليه على أنه الدين الحقيقي يعني أن الردة عنه غباء كامل .

رابعاً تغريب النخبة:

عمد الغرب بهذا الواقع الجديد إلى ضرب التوازن المستقر الذي أوجده الإسلام بين طبقات المجتمع المختلفة وإلى تمزيق الشرايين الحيوية التي تجري بين الطبقات العليا والدنيا وإيجاد تنافضات بينها ، إلى أن ينتهي الأمر بأن تتضرر الطبقة العليا إلى الطبقة الدنيا على أنها جماعة من المختلفين البدائيين الذين يمثلون ما يسميه الغرب «بالوجه الفقير لثقافة الإسلام التقليدية».

وحتى تتسع الهوة بين هاتين الفئتين عمد الغرب إلى ما يلي:

١- تغريب واحتضان الطبقة العليا التي تملك المال الوفير والفرص المتاحة للسفر والاتصال بالغرب وشراء منتجاته وتبني نمط حياته ، ثم استغلال الدافع الكامن عند الطبقة الدنيا التي تسعى إلى تسلق السلم الاجتماعي لتكون قريبة من الطبقة العليا بإتحادة الفرصة لها لاكتساب الخاصية التي تفرد بها هذه الأخيرة .

٢- تدمير الجسر الثقافي الذي يربط بين الفئتين السابقتين بتحويل الطبقة العليا إلى جماعة من المستهلكين الشرهين لكل ما هو مستورد وقادم من الغرب ، بعد أن كانت هذه الطبقة تستخدم أحسن وأجمل وأفضل القوى الثقافية المتوفّرة في الأرض الإسلامية ، لقد كان هذا الاستخدام في حد ذاته أساساً من أسس توحد الطبقة العليا في المجتمع مع باقي الطبقات .

لم يكن تغريب الطبقة العليا إلا أحد أوجه سلسلة الواقع الجديد الذي أراد به الغرب ضرب التوازن الاجتماعي المستقر في البلاد الإسلامية، وهناك وجها آخران: أولهما إيجاد طبقة جديدة من العمال الحضريين المحررمين ، ولقد جندت هذه الطبقة من المدن ومن الريف ؛ لدفع عجلة التصنيع الفجائي والمفروض الذي أدخله الغرب على عالمنا الإسلامي ، لقد عاشت هذه الطبقة ظروفاً صعبة وقاسية ولم يكن المهم أن تعيش هذه الظروف فقط ، وإنما كان المهم أن تحرم من الإشباعات العاطفية والروحية التي يمنحها الدين والأسرة الممتدة لأفرادها. كان تجنيد هذه الطبقة من الريف لتحقيق هدف مهم آخر سعى إليه الغرب وهو إيجاد ما يسمى (بنائية الريف المدينة) حيث القدر الأكبر للمدينة وكل ما قدم منها ويرمز لها ، مع الحط من قدر الريفيين والعمل على هجرتهم إلى المدينة لتشكيل الطبقة الجديدة وتركيز المهنيين (الغير مهمين) والمتلقين في المدينة على حساب المهنيين الذين نشتد الحاجة إليهم كالأطباء والمهندسين وغيرهم.

هذا هو الوجه الأول ، أما الوجه الثاني: فقد كان تدعيم الطبقة الوسطى وإضافة فئات أخرى لها تشابه أكثر وأكثر مثيلتها في البلاد الغربية ، ويعهد إليها بمهمة التطوير الثقافي للبلاد لحساب الغرب.

خامساً إدخال الصناعة والتكنولوجيا:

لم يكن التصنيع (الحادي) والتكنولوجيا واقعاً قائماً في بلاد المسلمين فجأة الغرب وأدخلهما عن عدم كواحد جديد بهدف إحداث اضطراب خطير في النسيج المكون لثقافة المسلمين أولاً ، ولضمان تبعية المسلمين له واستنزاف خيراتهم بطريقة عصرية ، لأن الطرق القائمة لا تسعفه في تحقيق هذا الاستنزاف.

دمر الغرب الصناعات المحلية، وقضى على المهن التقليدية، ونشر بضائعه الاستهلاكية ، وأرغم الصناع والحرفيين إما على الخروج من الساحة والانضمام إلى ركب العمال الحضريين، أو تعديل خبرتهم الفنية بحيث ينتجون بضائع ذات نمط غربي يعرف الغرب أنها لن تقوى على المنافسة أمام بضائعه التي تستخدم التقنية الحديثة العالمية الجودة المعدلة وفقاً لأذواق المسلمين ، ثم نافس الغرب بعد ذلك المشروعات الصناعية القائمة ، وأدخل مناهجه الغربية في إنتاج ما يصنع محلياً.

اعتقد المسلمون أنهم وهم يستخدمون المعدات والتقنية الغربية قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم الاجتماعي ، وأن التغيير الذي حدث عندهم بسبب هذا الاستخدام تغير محدود لن يؤثر على قيمهم الأساسية ، ولم يدرك المسلمون وهم في وهم هذا التقدم أن الغرب قد وقف بهم عند حد (طريقة الاستخدام) ولم ولن يصل بهم أبداً إلى (طريقة الإنتاج).. لم يكن المسلمون وهم يستخدمون الصناعة والتقنية الغربية يقفون عند الحدود الشرعية التي تحدد لهم الفرق بين الانتفاع بالثقافة وبين التأثر بهذه الثقافة ، في حين أن الغرب كان يعلم تماماً أن استخدام أي عنصر ثقافي غربي لابد وأن يؤدي بالضرورة إلى استخدام عنصر آخر ، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى تبني طريقة الحياة الغربية ذاتها.

حال الغرب دون تمكين المسلمين من صناعة الآلات التي توجد فيها باقي الصناعات ، فلم توجد لدينا المصانع التي تصنع الآلات من (متورات) وخلافه ولم تتوفر لدينا آلات من صناعة البلاد تمكنا من صناعة باقي المصانع ، ولقد أعاد الغرب صناعة الآلات في بلاد المسلمين بحجة أنها تحتاج إلى وقت طويل وأنه لابد لنا من صناعة الحاجات الأساسية ، فانصرف المسلمين إلى الصناعات الاستهلاكية وأصبحت بلادهم سوقاً لمصانع أوروبا وأمريكا ، وأرسلت أكثر البعثات إلى الخارج لتعلم صناعة الهندسة الثقيلة وصناعة الفولاذ ، ولكن لدراسة الأدب واللغويات والعلوم الإنسانية

والاجتماعية التي توسيع الهوة بين المسلمين وثقافتهم ، فانصرفت البلاد إلى صناعة المنسوجات والورق وخمام الحرير ، وأهملت صناعة الآلات.

وبدلاً من استقدام خبراء صناعة الآلات استقدمت الخادمات والمربيات الأجنبية ، صاغ الغرب لنا كتبنا خاصة في النمو الاقتصادي ، فجعلنا نعتقد أننا لابد وأن نسير في عدة مراحل وبشروط معينة حتى نصل إلى مرحلة التقدم فأطالت أمامنا أمل تسلم زمام رأس الصناعة ومنبعها وهو (صناعة الآلات).

أجبرنا الغرب على شراء المصانع والآلات منه وبنمن باهظ ، وإذا أصيّبت الآلات بعطب أو كسر اضطررنا لاستقدام خبرائه لإصلاحها أو استيراد الآلة منه وإلا تعطلت المصانع كلية.

لم تكون بلاد المسلمين سياسة اقتصادية محددة في أن تكون هذه البلاد (صناعية) بمعنى (أن تصنع الآلات) ، ولهذا لم تخلص بلادنا حتى الآن ولم تستغن عن الغرب لكنها أصبحت بدلاً من ذلك أكثر ارتباطاً به وبمنتجاته وأداته والأهم من ذلك كله بطريق الحياة الغربية.

يقول (باتاي):

ما أن وجد الغربيون لأنفسهم قديماً في قلب الشرق الأوسط حتى بدأوا في إظهار (تكنولوجيتهم) ونشر مظاهر معينة منها عمداً وعرضياً بين السكان المحليين. إن المظاهر التكنولوجية للثقافة هو إيّس ما يمكن أن يستعار، وهذا صحيح فقط عند النظر إلى (استخدام) المنتج التكنولوجي وليس (إنتاجه). إنه يصعب عليك أن تصنع مضخة مياه تعمل بمحرك لكنك تستطيع في دقائق قليلة أن تتعلم كيف تستخدمها، وأن تتعرف على مزاياها التي تفوق استخدامك للأسلوب القديم لرفع المياه عن طريق (الشادوف).

إن قبول سكان الشرق الأوسط للتكنولوجيا الغربية بالإضافة إلى إمكانيات نقلها ووظيفتها الكبيرة كمؤشر هام للتقدم ، قد تيسّر بواسطة حقيقة مؤداها أنها لا تشغّل وضعاً مهمّاً في ثقافتهم الخاصة.. وبمعنى آخر إن شعوب الشرق الأوسط مثل أصحاب أي ثقافات أخرى لم تر أن مجرد التحول إلى استخدام المعدات الغربية يعني أن قيمهم الأساسية سوف تتأثر ، بل رأت أنه مجرد تغيير ذو أهمية قليلة ، وأخيراً أدركت بعد أن فات الأوان أن قبول أي عنصر ثقافي غربي منفرد يؤدي إلى قبول عناصر أخرى أكثر وأحدث فتكون النتيجة إحداث اضطراب خطير في النسيج الحيوي المكون لثقافتهم التقليدية.

إن مقارنة نمو التصنيع الغربي بتصنيع الشرق الأوسط يبين لنا أن تصنيع الأخير كان محدوداً وفجائياً ، بالإضافة إلى أنه مفروض من الخارج ، ولم ينمو عضوياً في بيئته المحلية ، ولهذا كان من المحتمل أن يصاحب بتوترات قاتلة يترتب عليها انهيار الأشكال التقليدية من التفاعل الاجتماعي الذي تميزه العلاقات الشخصية والأسرية وانتشار المكانات الموجهة قرابةً ، وتحوله إلى الأشكال الغربية من التفاعل الاجتماعي الذي يقوم على العلاقات غير الشخصية».

هذه خمسة عناصر من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين لتغريبيهم وتدمير التوازن القائم في ثقافتهم ، وتندرج جهود الغرب هذه تحت قوله عز وجل ((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق))(١) ، وتشير الواقع السابقة إلى أن الغرب قد نجح إلى حد بعيد في جهوده تلك رغم التحذير الذي وجهه الله عز وجل للمسلمين من اتباع سبيل الكافرين كما جاء في قوله تعالى: ((ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم))(٢) ، وقوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه

منهم)) (٣) وقوله تعالى: ((لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوأدُون من حادَ الله ورسوله)) (٤) ... إلى غير ذلك من الآيات.

لكن نجاح الغرب في تغريب المسلمين لم يكن راجعاً إلى كفاعة تنظيره المدروس الذي أسماه (تشويش الأحكام القيمية) ، فليس هذا التنظير كما يخيل للبعض بجهد إبداعي خلاق يضيف هيبة أخرى إلى هيبة الغرب الحالية في عيون المسلمين. إن هذا الجهد يتضاعل أمام قاعدة ابن تيمية رحمة الله التي يقول فيها: «إن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة في الأخلاق والأعمال... فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة ، فكيف بالمشابهة في أمور دينية. فإن إفشاء هذا النوع من الموالاة أكثر وأشد والمحبة والموالاة لهم أي اليهود والنصارى تنافي الإيمان».

ويرجع نجاح الغرب في تغريب المسلمين إلى سببين أساسين:

الأول: أن هذا هو قضاء الله عز وجل النافذ فيما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم- مما سبق في علمه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم- (لتتبين سنن من قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا مجر الضب لدخلتموه ، قال يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال فمن؟) (٥).

الثاني: ضعف إيمان المسلمين: الله سبحانه وتعالى ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه عملاً وعملاً ، يقول ابن القيم رحمة الله في ذلك: «إذا ضعف الإيمان صار لعدوهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم فهم جعلوا عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى ، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من بأقطارها ، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً.. وقد قال الله تعالى للمؤمنين ((ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)) (٦) ، وقال تعالى: ((فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترکم أعمالكم)) (٧).

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذا كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره.

الهوامش :

*انظر تفصيلاً: RAPHAEL PATAI, THE DYNAMICS OF WESTERNIZATION THE MIDDLEEAST JOURNAL, V ١٦-١ . NO ٩ . ١٩٥٥ . WINTER .

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء ، آية ١١٥ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٥١ .

(٤) سورة المجادلة ، آية ٢٢ .

(٥) أخرجه الترمذى ، كتاب الفتن ، وابن ماجة ، كتاب الفتن.

(٦) سورة آل عمران ، آية ١٣٩ .

(٧) سورة محمد ، آية ٣٥ .

هموم ثقافية

أقوال منسية حول «التغريب»*

د. أحمد إبراهيم خضر

منذ العشرينيات من هذا القرن والباحثون الغربيون المتخصصون منشغلون بقضايا تغريب العالم الإسلامي بعامة ، وما يسمونه بمنطقة الشرق الأوسط خاصة ولا يكاد يخلو أي كتاب أو أي مقالة تتعرض لحياة المسلمين من إشارة هنا وأخرى هناك لهذا التغريب ، إلى الدرجة التي حدت بهؤلاء الباحثين إلى القول:

«إن ظاهر التغريب عند شعوب الشرق الأوسط مشاهدة تماماً وبدرجة كافية وإنه لمن السهل عليك أن تضع قائمة طويلة توضح لك كيف أن هذه المظاهر التقليدية التي كانت سائدة منذ مائة أو مائة وخمسين عاماً قد اجتاحتها رياح التغيير ، واستبدلتها بقيم أدخلها الغرب».

لم يكن تغريب المسلمين مسألة متروكة لمجرد الاحتكاك بين الثقافتين الإسلامية والغربية، ثم متابعة آثار هذا الاحتكاك على الإسلام والمسلمين، إنما كانت سياسة موجهة ومدروسة تستند إلى تضليل خاص ، يعتمد في جزء كبير منه على تجارب الاحتكاك بين الإسلام والغرب في الماضي ، وعلى تجربة الثورة الصناعية وما تلاها من آثار على البناء الاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي الغربي ، ثم على تحليل مسألة اتساع الهوة بين هاتين الثقافتين بعد الثورة الصناعية؛ بسبب الاستقرار الثقافي في بلاد المسلمين، وتلك التراكمات التي أخذت مكانها في الغرب.

نظريّة ومكاسب:

استندت عملية تغريب المسلمين إلى ما يسمى بنظرية (تشويش الأحكام القيمية) أو إيقاع الاضطراب في هذه الأحكام ، وتقوم هذه النظرية على الأساس التالي:

«هناك توازن وتوافق بين عناصر ثقافة المجتمع التقليدي المستقر جيداً ، بمعنى أن القيم التي تحكم وتسود هذا المجتمع تنسق وتويد واقعه المعاش ؛ ولهذا تتميز ثقافة هذا المجتمع بالتماسك والتوازن الداخلي.

ويمكن للواقع الثقافي أن يغير وأن يستعيir عناصر من ثقافة أخرى مخالفة بصورة أكثر سرعة من استئمار القيم الثقافية ، ولهذا يصعب حدوث تغير في القيم في الوقت الذي يسهل فيه حدوث تغير في الواقع.

وعندما يحدث اتصال بين ثقافتين مختلفتين ، فيدخل واقع جديد إلى إدراهما يمكن هنا أن يتحطم التوازن القديم ، وتتغير القيم الثقافية بتغيير الواقع الذي كانت تحكمه وإن احتاج الأمر إلى بعض الوقت ، بسبب هذه الصلة العاطفية التي يحيط بها المجتمع ثقافته الخاصة ، ومقاومته لإدخال أي محتويات ثقافية غريبة أو جديدة.

وهذا لا يعني بالطبع أن مكونات الواقع في ثقافة ما يمكن أن تزرع في ثقافة أخرى دون أن تسبب تغيرات في قيمها ، أو أن قيم ثقافة ما يمكن أن تفرض على الثقافة الأخرى دون أن تحدث تغيرات في مكونات هذه الثقافة ؛ لأن التناسق المحكم والاعتماد المتبادل بين مكونات الواقع والقيم الثقافية يجعل من غير الممكن أن تدخل تغيرات في واحدة منها دون أن تحدث تغيرات في الأخرى».

بهذه النظرية دخل الغرب إلى حياة المسلمين ساعياً بمختلف طاقاته الثقافية والعسكرية والاقتصادية والتقنية إلى إدخال واقع جديد يخص ثقافته هو على ثقافة المسلمين؛ ليحطّم التوازن القائم بين واقعها وقيمها ، ويغير من قيمها حتى تصبح مناسبة لواقع الجديد الذي أدخله عليها ، وقد حقق الغرب هنا مكاسبين مهمين: أولهما أنه بتحطيمه لهذا التوازن المشار إليه أوجد هوة عميقة بين الإسلام والمسلمين ، ودمر الصلة العاطفية التي تربط المسلمين بإسلامهم والمكسب الآخر: أنه وهو يخترق هذه الهوة ليملأ الفراغ المترتب عليها حرك الأمور بالطريقة التي تمكنه من تحقيق مكاسب مادية ضخمة على حساب هذا الكيان المنهاج.

سنقتصر في مقالتنا هذه على عرض وتحليل ثلاثة من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين فدمّر التوازن القائم في ثقافتهم.

أولاً صنع هيبة الغرب:

لم يكن هذا الواقع موجوداً من قبل ، كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم تقوم على أساس «الإسلام والكفر، وجاء الغرب وأدخل واقعاً جديداً..» وبعد أن تمكن من إيجاد موطن لأقدامه في بلاد المسلمين، أحاط نفسه وأهله بهالة من الهيبة والاحترام ، وفرض نفسه على النظام الاجتماعي القائم في بلاد المسلمين، وتقلد الوظائف القيادية، وساهمت حكومات بلاد المسلمين العلمانية في تدعيم هذه الهيبة ؛ بوضع أبناء المستعمر في مواقع قيادية مهمة وسمحت لهم بالحضور إلى مناسبات وطنية وغير وطنية ، لا يدعى إليها عادة إلا كبار رجالات الدولة وعليها القوم فيها. وزاد الغرب من هيبته في عيون المسلمين بما أدخله عليهم من صناعات وتقنيات وعلوماً وثقافة في ميدان مهم انفرد بها ، وكان نتيجة ذلك أن ظهر الغربيون للMuslimين على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.

وهنا تغيرت القيم فأصبح الغرب وأهله هدفاً مرغوباً يسعى بعض المسلمين للاقناع به ، كما ينتفعون بصناعاته ومنتجاته ، وسهلت هذه الهيبة عند المسلمين طريق محاكاة أسلوب الحياة والسلوك والأخلاق والاتجاهات الغربية ، ثم جاء الانهيار الكبير حينما فُلِدَ المسلمين الغربيون في فتورهم نحو دينهم وعدم مبالاتهم به وهو عين ما كان يهدف إليه الغرب.

يقول (روفائيل باتاي) أستاذ علم الإنسان في (دوبيسي كوليج) بفيلا ديليفيا وجامعة كولومبيا في الخمسينيات من هذا القرن:

«... بينما تكشف لنا البدايات التقنية للتغيير عن هذا النجاح العالمي الذي حققه ، تأتي هناك عوامل أخرى أبرزها (نظام الهيبة الجديد) الذي تسرب الغربيون عن طريقه إلى قطاعات الناس المختلفة ، وتمكنوا من السيطرة والرقابة على الوظائف المهمة ، وفرضوا أنفسهم على النظام الاجتماعي ، وظهروا للناس على أنهم هم الأسمى وهم الطبقة العليا.

ليس من السهل أن نحل المكونات المتعددة التي تصنع الهيبة الغربية ، لقد كان عنصر القوة هو العنصر الأكثر أهمية في أيام الاستعمار الأوروبي ، إلا أن هذا العنصر قد استبدل الآن بمزيج متعدد المكونات: مثل الثروة ، وتملك الآلات والمعدات الغربية ذات الهيبة ، أو المعرفة الخاصة في ميدان ذات أهمية متزايدة كالطب والزراعة وغيرها ، وشغل مراكز تحظى بالثقة والنفوذ تمنحها الحكومات المحلية للغربين ، والسماح لهم بالحضور الحر في مناسبات معينة مثلما يسمح تماماً وبدرجة متساوية للقيادات العليا في الدولة. إن الهالة والهيبة التي تحيط بالغربي غافت ثقافته تماماً، فأصبح اكتساب الثقافة الغربية نتيجة لذلك هدفاً مرغوباً فيه اجتماعياً يفوق بدرجة كبيرة الاقناع المعترض به لمنتجات هذه الثقافة».

وفي معرض حديثه عن تخلي المسلمين عن مناهجهم التقليدية في الطب واتباعهم لمناهج الطب الحديث يقول (باتاي) في وثيقته:

«إن البحث في الأسباب التي أدت إلى التغيرات في الاتجاهات العقلية التي سادت منذ قرون ، لا يجعلنا نرد هذه التغيرات العقلية إلى الاهتداء المفاجئ إلى التفكير الأكثر عقلانية ولكن إلى (الميل للغرب).. من أين أتى هذا الميل؟!

تكمّن الإجابة على هذا السؤال في هذه الهيبة للغربين وثقافتهم ، إن الهيبة التي يتمتع بها كل شيء عربي في عيون شعوب الشرق الأوسط أوجد فيهم نزوعاً إلى محاكاة كل الطرق الغربية ، إنه أدى إلى رغبة خانعة ليس فقط في الحصول على المعدات الغربية ، ولكن رغبة في تقليد السلوك

والاتجاهات الغربية كذلك. لقد قبل الطب الغربي ليس لأنه أظهر أفضلية ولكن لأنه طب غربي ، تبني سكان الشرق الأوسط ازدراء الغرب للممارسات السحرية وغير العلمية ، ليس لأن ذلك له قيمة فحسب ، ولكن لأنه أمر مؤكد جاء به الغرب (المهاب)».

وعن (اللامبالاة) وعدم الاكتراث بالدين التي قلد فيها المسلمين الغرب يقول (باتاي) : «... وهنا ظهر على المسرح (الغربي) المحمول بالهيبة والذي يحتل وضعاً أعلى ويحمل ثقافة تستحضر الرغبة في محاكماتها: أن هؤلاء الأجانب لا ينتمون فقط إلى دين مختلف ، ولكن اتجاهاتهم نحو دينهم المسيحي كانت فاترة فكان من الطبيعي أن يقلد هؤلاء المعجبون بالطرق الغربية من مجموع ما قلدوه الفتور نحو الدين واللامبالاة به ، فأظهروا عدم الاهتمام بدينهم هم».

ثانياً علمنة الأسرة:

ينظر الغربيون إلى الأسرة المسلمة على أنها أسرة ممتدة ، والأسرة الممتدة في المصطلحات الغربية هي الأسرة التي تتكون بنائياً من ثلاثة أجيال أو أكثر ، وتضم الأجداد وأبناءهم غير المتزوجين والمتزوجين (أو بنائهم) وتضم أحفادهم كذلك.

سعى الغربيون نحو علمنة الأسرة المسلمة، وإلى أن تكون الأسرة الغربية وأشكالها الاجتماعية هي النموذج الجديد الذي يجب على المسلمين الاقتداء به. عمل الغرب على فصل الأسرة المسلمة عن الدين ، وذلك بكسر قبضة الدين من تلك الأسرة الممتدة وتقليص اعتماد الفرد عليها ، والقضاء على تكامله معها وتمدير سلطة الأب على أولاده ، وانفلات الأبناء من الأسرة ؛ حتى ينفلتوا من الجو الديني العام الذي يحيط بالأسرة ، والنظر إلى كل ذلك على أنه ماضٍ يجب أن يرفض.

يقول (باتاي) :

«في الوقت الذي كان فيه التأثير المباشر للبعثات التنصيرية على الحياة الدينية في الشرق الأوسط تافهاً ، تميز الغرب بموقفه البارد تجاه الدين لأن الدين في الشرق الأوسط في ظل الظروف التقليدية هو طريقة كافية للحياة: التنظيمات المهنية هي تنظيمات دينية ، ارتداء الزي المحلي أمر يقره الدين الطب والتعليم مهنتان ، سلطة الدولة نفسها تقوم على الدين ، ليس هناك ترتيب هرمي في الإسلام كما هو في الكنائس المسيحية ، وليس هناك قسيس أيضاً ، العديد من سكان الحضر منظمون في دوائر دينية ، والكثير من العائلات سواء أكانت في الريف أو الحضر تحظى بتأييد المؤسسات الدينية ، أما أكثر المؤسسات التي تمسك بقبضتها على الفرد فهي الأسرة الممتدة ، اعتماد الفرد على أسرته وتكامله معها مسألة عالية الأهمية في ثقافة الشرق الأوسط إلى درجة أنها تعد ثقافة القرابة، الأسرة هنا مؤسسة دينية يعدها الدين ، أي أن الدين يعنى بالأسرة ، وهي بدورها تعنى الدين.

ولما جاء التغريب أحدث انهياراً في السلطة الأبوية ، وحطم الأسرة الممتدة وغير نظام الاقتصاد العائلي بسبب حركة الهجرة من القرية إلى المدينة إلى نظام اقتصادي يقوم على علاقات غير شخصية ، أصبحت الأسرة الغربية وأشكالها الاجتماعية نموذجاً يحتذى به بين الطبقات العليا والوسطى ، ولم يترتب على هذه الأمور مجرد تغير جوهري في طبيعة الحياة الأسرية ذاتها فقط ، وإنما ترتب عليها أهم من ذلك كله وهو (علمنة الأسرة) وابتعادها عن الدين ، فحينما ينفلت الشاب من قبضة أسرته كان يخلف وراءه هذا الجو الديني الهام الذي كان يحيط به فيصبح رفضه لهذا الجو جزءاً من رفضه للماضي ، ولهذه الأسرة التي تحكم قبضتها عليه.

ثالثاً الحياد الموجه للمشروعات الاقتصادية والفنية الغربية:

هناك الكثير من المشروعات الاقتصادية والفنية الغربية العاملة في البلاد الإسلامية مهمتها الأساسية استنزاف خيراتها وربطها بالغرب، وقد حرص الغربيون وهم يدخلون هذا الواقع الجديد إلينا هذه

المشروعات على تجنب الخوض المباشر في أي موضوعات تتعلق بالعقيدة الإسلامية ، وتركوا هذه المهمة للبعثات التصويرية بالرغم من تسليمهم بمحدودية عائداتها وللشيوعية لكنهم أي الغربيين أولوا الشيوعية اهتماماً وثقلأً أكبر ، فهي في نظرهم التهديد الحقيقي الخطر على عقيدة المسلمين الذي يمكن أن يطيح بتوازنهم الاجتماعي الثقافي ، وقد تركت الجهود على إقناع المسلمين بأن الشيوعية لا تتطابق مع الإسلام فقط بل إنها التعبير الحقيقى للشكل النفى من الإسلام في أصوله الأولى! ولا يهم هنا أن يكون نظام الحكم القائم في بلاد المسلمين شيوعاً بقدر ما يهم تدمير بنائهم الاجتماعي الثقافي الكلى .
يقول (باتايم):

«تميز مدخل الغرب في الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة بصفة خاصة بالاعتناء الشديد بتجنب الخوض في أي قضايا أيديولوجية ، والتركيز على الناحية الفنية فقط بالنسبة للمشروعات الاقتصادية والفنية وما هو على شاكلتها ، دخلت هذه المشروعات إلى الشرق الأوسط عبر الولايات المتحدة والأمم المتحدة ومعها توجيهه أساساً بعدم التدخل في القيم والأيديولوجيات الخاصة بالبلاد . لكن الأمر يختلف بالنسبة للبعثات التصويرية ، فليس أمر الكف عن التدخل الأيديولوجي موضع حرية اختيار هنا ، إلا أنه يجب أن يوضع في الاعتبار رد فعل المجتمع الإسلامي للمحاولات المكشوفة لتصويره ، لقد نجحت البعثات التصويرية في علاج عشرات الآلاف من المسلمين ، كما علمت الآلاف من مرضى الأطفال المسلمين ، وربما أثرت بسلوكياتها ومثلها على النزرة الأخلاقية للعديد من المسلمين ، ورغم ذلك فإن الذين تحولوا إلى النصرانية قلة قليلة . إن الدين في الشرق الأوسط يشغل وضعياً محورياً في بنائه ؛ ولهذا يعتبر التنصير عند المسلمين ردة يترتب عليها أن ينفصل المسلم إذا تنصر عن الأسرة والمجتمع والقيم الثقافية ويعرض لنبذ أصدقائه والمحيطين به ، وأهم من ذلك كله أن اعتناق الإسلام اعتقاداً ثابتاً لا يهتز والنظرية إليه على أنه الدين الحقيقي يعني أن الردة عنه غباء كامل .

رابعاً تغريب النخبة:

عمد الغرب بهذا الواقع الجديد إلى ضرب التوازن المستقر الذي أوجده الإسلام بين طبقات المجتمع المختلفة وإلى تمزيق الشرايين الحيوية التي تجري بين الطبقات العليا والدنيا وإيجاد تناقضات بينها ، إلى أن ينتهي الأمر بأن تنظر الطبقة العليا إلى الطبقة الدنيا على أنها جماعة من المختلفين البدائيين الذين يمثلون ما يسميه الغرب «بالوجه الفقير لثقافة الإسلام التقليدية».

وحتى تتسع الهوة بين هاتين الفتنتين عمد الغرب إلى ما يلي:

١- تغريب واحتضان الطبقة العليا التي تملك المال الوفير والفرص المتاحة للسفر والاتصال بالغرب وشراء منتجاته وتبني نمط حياته ، ثم استغلال الدافع الكامن عند الطبقة الدنيا التي تسعى إلى تسلق السلم الاجتماعي لتكون قريبة من الطبقة العليا بإتحادة الفرصة لها لاكتساب الخاصية التي تفردت بها هذه الأخيرة .

٢- تدمير الجسر الثقافي الذي يربط بين الفتنتين السابقتين بتحويل الطبقة العليا إلى جماعة من المستهلكين الشرهين لكل ما هو مستورد وقادم من الغرب ، بعد أن كانت هذه الطبقة تستخدم أحسن وأجمل وأفضل القوى الثقافية المتوافرة في الأرض الإسلامية ، لقد كان هذا الاستخدام في حد ذاته أساساً من أسس توحد الطبقة العليا في المجتمع مع باقي الطبقات .

لم يكن تغريب الطبقة العليا إلا أحد أوجه سلسلة الواقع الجديد الذي أراد به الغرب ضرب التوازن الاجتماعي المستقر في البلاد الإسلامية ، وهناك وجهان آخران: أولهما إيجاد طبقة جديدة من العمال الحضريين المحرومين ، ولقد جندت هذه الطبقة من المدن ومن الريف ؛ لدفع عجلة التصنيع

الفجائي والمفروض الذي أدخله الغرب على عالمنا الإسلامي ، لقد عاشت هذه الطبقة ظروفًا صعبة وقاسية ولم يكن المهم أن تعيش هذه الظروف فقط ، وإنما كان المهم أن تحرم من الإشاعات العاطفية والروحية التي يمنحها الدين والأسرة الممتدة لأفرادها. كان تجنيد هذه الطبقة من الريف لتحقيق هدف مهم آخر سعى إليه الغرب وهو إيجاد ما يسمى (بنائية الريف المدينة) حيث القدر الأكبر للمدينة وكل ما قدم منها ويرمز لها ، مع الحط من قدر الريفيين والعمل على هجرتهم إلى المدينة لتشكيل الطبقة الجديدة وتركيز المهنيين (الغير مهمين) والمثقفين في المدينة على حساب المهنيين الذين تشتت الحاجة إليهم كالأطباء والمهندسين وغيرهم.

هذا هو الوجه الأول ، أما الوجه الثاني: فقد كان تدعيم الطبقة الوسطى وإضافة فئات أخرى لها تشابه أكثر وأكثر مثيلتها في البلاد الغربية ، ويعهد إليها بمهمة التطوير الثقافي للبلاد لحساب الغرب.

خامساً إدخال الصناعة والتكنولوجيا:

لم يكن التصنيع (الحديث) والتكنولوجيا واقعاً قائماً في بلاد المسلمين فجأة الغرب وأدخلهما عن عمد كواقع جديد بهدف إحداث اضطراب خطير في النسيج المكون لثقافة المسلمين أولاً ، ولضمان تبعية المسلمين له واستنزاف خيراتهم بطريقة عصرية ، لأن الطرق القائمة لا تسعفه في تحقيق هذا الاستنزاف.

دمر الغرب الصناعات المحلية، وقضى على المهن التقليدية، ونشر بضائعه الاستهلاكية ، وأرغم الصناع والحرفيين إما على الخروج من الساحة والانضمام إلى ركب العمال الحضريين، أو تعديل خبرتهم الفنية بحيث ينتجون بضائع ذات نمط غربي يعرف الغرب أنها لن تقوى على المنافسة أمام بضائعه التي تستخدم التقنية الحديثة العالية الجودة المعبدلة وفقاً لأنواع المسلمين ، ثم نافس الغرب بعد ذلك المشروعات الصناعية القائمة ، وأدخل مناهجه الغربية في إنتاج ما يصنع محلياً.

اعتقد المسلمون أنهم وهم يستخدمون المعدات والتقنيات الغربية قد وصلوا إلى مرحلة من التقدم الاجتماعي ، وأن التغيير الذي حدث عندهم بسبب هذا الاستخدام تغير محدود لن يؤثر على قيمهم الأساسية ، ولم يدرك المسلمون وهم في وهم هذا التقدم أن الغرب قد وقف بهم عند حد (طريقة الاستخدام) ولم ولن يصل بهم أبداً إلى (طريقة الإنتاج).. لم يكن المسلمون وهم يستخدمون الصناعة والتقنية الغربية يقفون عند الحدود الشرعية التي تحدد لهم الفرق بين الانتفاع بالثقافة وبين التأثر بهذه الثقافة ، في حين أن الغرب كان يعلم تماماً أن استخدام أي عنصر ثقافي غربي لابد وأن يؤدي بالضرورة إلى استخدام عنصر آخر ، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى تبني طريقة الحياة الغربية ذاتها.

حال الغرب دون تمكين المسلمين من صناعة الآلات التي توجد فيها باقي الصناعات ، فلم توجد لدينا المصانع التي تصنع الآلات من (موتورات) وخلافه ولم تتوفر لدينا آلات من صناعة البلاد تمكنا من صناعة باقي المصانع ، ولقد أعاد الغرب صناعة الآلات في بلاد المسلمين بحجة أنها تحتاج إلى وقت طويل وأنه لابد لنا من صناعة الحاجات الأساسية ، فانصرف المسلمون إلى الصناعات الاستهلاكية وأصبحت بلادهم سوقاً لمصانع أوروبا وأمريكا ، وأرسلت أكثر البعثات إلى الخارج لا لتعلم صناعة الهندسة الثقيلة وصناعة الفولاذ ، ولكن لدراسة الآداب واللغويات والعلوم الإنسانية والاجتماعية التي توسيع الهوة بين المسلمين وثقافتهم ، فانصرفت البلاد إلى صناعة المنسوجات والورق وخام الحرير ، وأهملت صناعة الآلات.

وبدلاً من استقدام خبراء صناعة الآلات استقدمت الخادمات والمربيات الأجنبيات ، صاغ الغرب لنا كتاباً خاصة في النمو الاقتصادي ، فجعلنا نعتقد أننا لابد وأن نسير في عدة مراحل وبشروط

معينة حتى نصل إلى مرحلة التقدم فأطالت أمامنا أمل تسلم زمام رأس الصناعة ومنبعها وهو (صناعة الآلات).

أجبرنا الغرب على شراء المصانع والآلات منه وبثمن باهظ ، وإذا أصيّبت الآلات بعطب أو كسر اضطررنا لاستقدام خبرائه لإصلاحها أو استيراد الآلة منه وإلا تعطلت المصانع كلية. لم تكن لبلاد المسلمين سياسة اقتصادية محددة في أن تكون هذه البلاد (صناعية) بمعنى (أن تصنع الآلات)، ولهذا لم تخلص بلادنا حتى الآن ولم تستغن عن الغرب لكنها أصبحت بدلاً من ذلك أكثر ارتباطاً به وبمنتجاته وآلاته والأهم من ذلك كله بطريقة الحياة الغربية.

يقول (باتاي):

ما أن وجد الغربيون لأنفسهم قدماً في قلب الشرق الأوسط حتى بدأوا في إظهار (تكنولوجيا) ونشر مظاهر معينة منها عمداً وعرضأً بين السكان المحليين. إن المظاهر التكنولوجية للثقافة هو إيّس ما يمكن أن يستعار، وهذا صحيح فقط عند النظر إلى (استخدام) المنتج التكنولوجي وليس (إنتاجه). إنه يصعب عليك أن تصنع مضخة مياه تعمل بمحرك لكنك تستطيع في دقائق قليلة أن تتعلم كيف تستخدمها، وأن تتعرف على مزاياها التي تفوق استخدامك للأسلوب القديم لرفع المياه عن طريق (الشادوف).

إن قبول سكان الشرق الأوسط للتكنولوجيا الغربية بالإضافة إلى إمكانيات نقلها ووظيفتها الكبيرة كمؤشر هام للتقدم ، قد تيسّر بواسطة حقيقة مؤداها أنها لا تشغّل وضعاً مهمّاً في ثقافتهم الخاصة.. وبمعنى آخر إن شعوب الشرق الأوسط مثل أصحاب أي ثقافات أخرى لم تر أن مجرد التحول إلى استخدام المعدات الغربية يعني أن قيمهم الأساسية سوف تتأثر ، بل رأت أنه مجرد تغيير ذو أهمية قليلة ، وأخيراً أدركت بعد أن فات الأوان أن قبول أي عنصر ثقافي غربي منفرد يؤدي إلى قبول عناصر أخرى أكثر وأحدث فتكون النتيجة إحداث اضطراب خطير في النسيج الحيوي المكون لثقافتهم التقليدية.

إن مقارنة نمو التصنيع الغربي بتصنيع الشرق الأوسط يبين لنا أن تصنيع الأخير كان محدوداً وفجائياً ، بالإضافة إلى أنه مفروض من الخارج ، ولم ينمو عضوياً في بيئته المحلية ، ولهذا كان من المحتمل أن يصاحب بتواترات قاتلة يترتب عليها انهيار الأشكال التقليدية من التفاعل الاجتماعي الذي تميز العلاقات الشخصية والأسرية وانتشار المكانات الموجهة قرابةً ، وتحوله إلى الأشكال الغربية من التفاعل الاجتماعي الذي يقوم على العلاقات غير الشخصية».

هذه خمسة عناصر من عناصر هذا الواقع الجديد الذي أدخله الغرب على حياة المسلمين لتغريبهم وتدمير التوازن القائم في ثقافتهم ، وتندرج جهود الغرب هذه تحت قوله عز وجل ((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق))(١) ، وتشير الوقائع السابقة إلى أن الغرب قد نجح إلى حد بعيد في جهوده تلك رغم التحذير الذي وجهه الله عز وجل للمسلمين من اتباع سبيل الكافرين كما جاء في قوله تعالى: ((ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويبيّن غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم))(٢) ، وقوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم))(٣) وقوله تعالى: ((لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله))(٤) ... إلى غير ذلك من الآيات.

لكن نجاح الغرب في تغريب المسلمين لم يكن راجعاً إلى كفاءة تنظيره المدروس الذي أسماه (تسويش الأحكام القيمية) ، فليس هذا التنظير كما يخيّل للبعض بجهد إبداعي خلاق يضيف هيبة أخرى إلى هيبة الغرب الحالية في عيون المسلمين. إن هذا الجهد يتضاعل أمام قاعدة ابن تيمية

رحمه الله التي يقول فيها: «إن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة في الأخلاق والأعمال... فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة ، فكيف بالمشابهة في أمور دينية. فإن إفشاء هذا النوع من الموالاة أكثر وأشد والمحبة والموالاة لهم أي اليهود والنصارى تنافي الإيمان».

ويرجع نجاح الغرب في تغريب المسلمين إلى سببين أساسين:

الأول: أن هذا هو قضاء الله عز وجل النافذ فيما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم- مما سبق في علمه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم-: (لتتبين سنن من قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا مجر الضب لدخلتموه ، قال يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال فمن؟) (٥).

الثاني: ضعف إيمان المسلمين: الله سبحانه وتعالى ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علمًا وعملاً ، يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: «فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم فهم جعلوا عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى ، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من بأقطارها ، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً.. وقد قال الله تعالى للمؤمنين ((ولا تهنووا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)) (٦) ، وقال تعالى: ((فلا تهنووا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترككم أعمالكم)) (٧).

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذا كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره.

الهوامش :

*انظر تصصيلاً: RAPHAEL PATAI, THE DYNAMICS OF WESTERNIZATION THE MIDDLEEAST JOURNAL, V ١٦-١ . NO ٩ . ١٩٥٥ . WINTER .

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء ، آية ١١٥ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٥١ .

(٤) سورة المجادلة ، آية ٢٢ .

(٥) أخرجه الترمذى ، كتاب الفتنة ، وابن ماجة ، كتاب الفتنة.

(٦) سورة آل عمران ، آية ١٣٩ .

(٧) سورة محمد ، آية ٣٥ .

المُلْفُ الأَدْبَرِ
نُصُوصُ شِعْرِيَّةٍ
«لَا» ..

د. محمد ظافر الشهري

من المنتصر؟!

سؤال من النار

آذت به عبَّدَها.. في سَقْرَ

فرَدَ الشرُّ:
عُمْرٌ.. أَيْهَا النَّارُ..
فازَ.. انتصَرَ
وَدِينُ الْمَجوسِ انتَهَرَ
هُمْ قَدْ «بِرُوا» رِيشَةَ الغَدَرِ
فِي صَدْرِ إِسْلَامِنَا
لَكِي يَرْسُمُوا صُورَةً قَاتِمَةً
فَكَانَتْ لَنَا الْخَاتِمَةُ
لِأَنَّ الْقَدْرِ..
إِذَا غَيَّبَ الشَّمْسَ
أَبْدَى الْقَمَرِ!
مِنَ الْمُنْتَصِرِ?
سُؤَالٌ عَضَالٌ!
إِجَابَتْهُ لَمْ تَكُنْ عِنْدَ أَهْلِ الشَّمَاءِ
وَلَا نَزْوَةً مِنْ «جَمَالٍ»
دُوْحَةً عَبَّقَتْ فِي «الظَّلَالِ»
فَغَنِيَ شَذَا عَطْرَهَا
مُوكَبَ الشَّمْسِ بَعْدَ «الْزَوَالِ»:
إِذَا طَلَبَ «الرَّمْلُ» مِنَ السَّجُودِ
وَبَلَّغَنَا «الْحَبْلُ» دَارَ الْخَلُودُ
فَإِنَّا نَفْضُلُ دَرَبَ الْحَبَالِ
مِنَ الْمُنْتَصِرِ!
وَرَوْدَ عَدَتْ نَحْنَا.. أَمْ يَدُ آثَمَةُ؟!
لِسَانٌ تَلَا الذَّكَرَ..
أَمْ أَلْسُنٌ ظَالِمَةُ؟!
أَكْفُ بِهَا الْجَمَرُ..
أَمْ رَاحَةُ الْغَادِةِ النَّاعِمَةُ؟!
أَنَا مُؤْمِنٌ
قَالَ لِلْكُفَّارِ: «لَا...»
وَأَبْصَرَ فِي مَعْصِمِ النَّصْرِ
«أَنْشُوطَةً» الْإِبْلَاءُ
فِيهَا نَفْسٌ لَا تَعْذِلُنِي
ذَرِينِي..
لَا نَفْضُ عَنْ سَاعِدِيِّ الْكَسْلِ
وَأَزْرَعُ فِي مَهْجِتِي
بَذْرَةً مِنْ أَمْلِ
وَأَجْتَثُ بِ«الْحَبْ» زَقْوَمَةً!

حيث كانت ولمّا تزل
ترد المسار
إلى جمرة
في «تجاعيد» ناز
وتتأبى على «العود» أن يشتعل!
ذريني..

أرفرف بالروح فوق الحياة
«أوزع» طوق النجاة
أصوغ من الفجر أنشودة خالدة
أعيش حدائی..
إلى «سورة المائدة»
وكل السور
وما دام للجنة الارتحان
فنعم «السفر»

قصة قصيرة درس الشيخ

د. محمد الحضيف

يداوم على حضور درس الشيخ عبد الهادي في مسجد (الحكمة) وحينما يعود إلى البيت، بعد الدرس، يسأله أهله عن الدرس، فيرد بشيء من الانفعال: هل الدرس طبق من الأكل أو قطعة ملابس ، حتى أعطيكم رأيي فيه؟!

إنه يرى كل الحضور يهزون رؤوسهم أثناء الدرس ، وبعد خروجهم من المسجد يتحدثون في مواضيع لا علاقة لها بالدرس مطلقا ، يذكر مرة أنه أراد مناقشة بعض الحضور فيما تحدث عنه الشيخ ، فوجد نفوراً ، ثم مال عليه أحدهم وهمس في أذنه: من (الحكمة) أن لا تناقش ما يقوله الشيخ ، إن الشيخ عبد الهادي يكره أن يقول كلامه ، فهو حينما يقول إن التلفزيون حرام ، لا يريد أن تذهب بأحد الظنون فيعتقد أنه يتهم مدير التلفزيون ، أو السياسة التي تقوم عليها برامج التلفزيون ، أو حتى برامج التلفزيون نفسها ، إن الشيخ عبد الهادي يؤثر (الحكمة) في قوله وعمله ، ولذا فهو يكره (المواجهة) ، ويكره كذلك أن يواجهه أحداً بخطئه.

تلميذ الشيخ عبد الهادي كلهم على هذه الشاكلة ، مرة حضر لأحدهم خاطرة ألقاها بعد الصلاة في مسجد في أحد الأحياء الفقيرة ، كان موضوع خاطرته «أولئك الذين يأتون إلى المسجد بثياب ممزقة وغير نظيفة» ، واشتد في تأنيبه لهم ، مردداً قوله تعالى: ((يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)). بعد الخاطرة رأى أن يناقشه فيما تحدث عنه ، فقال له: كيف تطالب هؤلاء الفقراء المعذمين بثياب نظيفة؟ ألم يكن من الأولى أن تحدثهم عن العدالة الاجتماعية في الإسلام حتى تعزيهم على الحال التي هم فيها؟ فرد عليه مستتركاً: كأني أشم في كلامك طروحت الاشتراكيين، أو بعض أفكار فلان وفلان، وبالمناسبة فالشيخ عبد الهادي لا يرى أن من (الحكمة) الترويج لمثل هذه الأفكار.

في إحدى المرات رأى وجهاً غير مألوف يحضر لأول مرة درس الشيخ لقد بات يعرف كل الذين يحضرون الدرس ، بعد أن أنهى الشيخ حديثه وهم الجميع بالانصراف ، تكلم الشخص الغريب فجأة على غير عادة الحضور فقال: يا شيخ ، أنت تكلمت فقلت من (الحكمة) أن لا تفعل كذا ومن (الحكمة) أن تفعل كذا ، ثم ذكرت حديث الأعرابي الذي دخل وبال في المسجد قبل سنتين ، وهذا إنما أحضر درسـك الآن ، ومازالت لم تبرح حديث بول الأعرابي ، يا شيخ ، لقد حضرت درسـ الشيخ عبد الرحمن في مسجد (الحزم) قبل أسبوعين فذكر حديث «سيد الشهداء حمزـة» ، وحضرت درسه الأسبوع الماضي ، وكان موضوعـه «الأمة في ظلـ النظام العالمي الجديد» ، وموضوعـ درسه اليوم «شيخ الإسلام ابن تيمـية مصلـحة».

دارت عيونـ الحاضرين ، وباشرـت أعنـاقـهم إلى هذا الواقـفـ يجادـلـ الشـيـخـ ، بعد هـولـ المـفـاجـأـةـ التي عـقـدتـ أـسـنـتـهـمـ ، قالـ لهـ أحـدـهـمـ: لـيـسـ مـنـ (ـالـحـكـمـةـ)ـ أـنـ تـخـاطـبـ الشـيـخـ بـهـذـهـ طـرـيـقـةـ ، فأـجـابـ الشـابـ: وـهـلـ مـنـ (ـالـحـكـمـةـ)ـ أـنـ يـخـدـرـكـمـ بـهـذـاـ الـكـلـامـ مـنـ أـكـثـرـ مـنـ خـمـسـ سـنـوـاتـ؟ـ قـالـهـاـ ،ـ ثـمـ اـسـتـدـارـ مـنـصـرـفـاـ.ـ حـدـثـ حـالـةـ مـنـ الـهـرـجـ ،ـ وـتـعـالـتـ الـأـصـوـاتـ ،ـ مـنـهـاـ مـاـ يـسـتـكـرـ التـصـرـفـ وـمـنـهـاـ مـاـ يـتـسـأـلـ ،ـ أـمـاـ هـوـ فـقـدـ اـنـسـبـ بـهـدـوـءـ وـخـرـجـ مـنـ الـمـسـجـدـ وـلـحـقـ بـالـشـابـ وـاسـتـوـقـفـهـ ،ـ ثـمـ سـأـلـهـ قـائـلـاـ:ـ أـنـاـ أـعـجـبـ مـنـ أـمـرـكـ ،ـ كـيـفـ قـدـرـتـ أـنـ تـجـادـلـ الشـيـخـ؟ـ لـقـدـ أـخـبـرـوـنـيـ أـنـ مـنـ (ـالـحـكـمـةـ)ـ أـلـاـ أـسـأـلـهـ ،ـ وـحـيـنـمـاـ سـأـلـتـ بـعـضـهـمـ عـنـ رـأـيـهـ فـيـ الـدـرـسـ ،ـ قـالـ لـيـ إـنـ الـدـرـسـ لـيـسـ أـكـلـاـ أـوـ مـلـابـسـاـ حـتـىـ يـكـوـنـ لـنـاـ رـأـيـ فـيـهـ ،ـ ثـمـ أـرـيدـ أـنـ أـسـأـلـكـ:ـ مـنـ هـوـ الشـيـخـ عـبدـ الرـحـمـنـ الـذـيـ تـحـدـثـتـ عـنـهـ؟ـ وـأـيـنـ مـسـجـدـهـ؟ـ قـالـ الشـابـ:ـ هـلـ تـوـدـ أـنـ تـحـضـرـ دـرـسـهـ؟ـ فـرـدـ بـإـيـجابـ.

في الأسبوع التالي كان في مسجد (الحزم) يستمع للشيخ عبد الرحمن الذي كان يتحدث عن «دور الشباب في الدعوة إلى الله» ، كان الشيخ عبد الرحمن يقول: «إن المجتمع يهدد وجوده الفساد ، لقد غدا حال الناس والفساد يحاصرـهمـ منـ كـلـ جـانـبـ ،ـ كـحـالـ قـومـ حـشـرـواـ حـشـرـاـ فيـ نـفـقـ مـظـلـمـ فـهـمـ يـتـخـبـطـونـ ،ـ يـحـتـاجـونـ دـلـيـلاـ يـقـوـدـهـمـ خـارـجـ النـفـقـ ،ـ وـالـدـلـيـلـ يـحـتـاجـ شـعـلـةـ تـهـدـيهـ فـيـ هـذـاـ الـظـلـامـ ،ـ إـنـ الشـابـ الـمـلـزـمـ هوـ الدـلـيـلـ ،ـ وـإـنـ الدـعـوـةـ هيـ الشـعـلـةـ ،ـ لـكـنـ الدـعـوـةـ أـمـرـهـاـ خـطـيرـ ،ـ وـمـنـ ضـرـورـاتـهـ الـامـتـاحـنـ وـالـابـتـلـاءـ ،ـ وـمـنـ لـوـازـمـهـاـ صـنـوـفـ مـنـ الـبـلـاءـ كـثـيرـ ،ـ مـنـهـاـ الـمـوـتـ وـالـسـجـنـ وـالـاضـطـهـادـ ،ـ مـصـدـاقـاـ لـقـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ ((أـحـسـبـ النـاسـ أـنـ يـتـرـكـوـاـ أـمـنـاـ وـهـمـ لـاـ يـفـتـنـونـ))ـ ،ـ إـنـ الـفـسـادـ الـذـيـ يـعـصـفـ بـالـمـجـتمـعـ أـضـعـافـ الـظـلـمـةـ الـتـيـ تـلـفـ النـفـقـ ،ـ وـإـنـ دـوـنـ الشـعـلـةـ لـهـبـاـ مـضـطـرـمـاـ فـلـاـ يـصـلـ إـلـيـهـ إـلـاـ أـوـلـوـ العـزـيمـةـ الصـادـقةـ ،ـ كـمـاـ أـنـهـ لـاـ يـصـبـرـ عـلـىـ بـلـاءـ الدـعـوـةـ إـلـاـ أـصـحـابـ الـهـمـ الـعـالـيـةـ الـذـيـنـ يـسـتـهـمـونـ الـدـرـسـ مـنـ مـعـلـمـهـ الـأـوـلـ مـحـمـدـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمــ ،ـ «ـوـالـلـهـ يـاـ عـمـ لـاـ أـتـرـكـ هـذـاـ الـأـمـرـ حـتـىـ يـظـهـرـ اللـهـ أـوـ أـهـلـكـ دـوـنـهـ»ـ.

أخذـتـ كـلـمـاتـ الشـيـخـ عـبدـ الرـحـمـنـ بـلـبـهـ ،ـ وـطـفـقـ يـحـدـثـ نـفـسـهـ:ـ هـذـاـ مـاـ كـنـتـ أـبـحـثـ عـنـهـ ،ـ لـكـنـ الشـيـخـ حـيـرـنـيـ حـيـنـمـاـ قـالـ خـذـ الشـعـلـةـ لـتـقـودـ النـاسـ ،ـ أـيـ اـقـبـلـ أـنـ تـحـمـلـ الدـعـوـةـ ،ـ ثـمـ يـعـودـ فـيـقـولـ إـنـ دـوـنـ الشـعـلـةـ لـهـبـاـ مـضـطـرـمـاـ ،ـ وـالـدـعـوـةـ مـحـفـوـفـةـ بـالـابـتـلـاءـ.

بعدـ نـهـاـيـةـ الـدـرـسـ ذـهـبـ إـلـىـ الشـيـخـ وـسـلـمـ عـلـيـهـ بـحـرـارـةـ ،ـ ثـمـ طـرـحـ عـلـيـهـ تـسـاؤـلـاتـهـ وـحـيـرـتـهـ ،ـ مـاـلـ عـلـيـهـ الشـيـخـ وـقـالـ:ـ خـذـ الشـعـلـةـ..ـ وـاحـذـرـ الـلـهـبـ ،ـ أـضـافـ وـهـوـ بـيـتـسـمـ:ـ أـرـاكـ ثـانـيـةـ.

عبدالوهاب الزملي

في حريق الفكره (المخدّره)

غشّي العين دخانٌ

فبدت ثم اختفت!

والدماء اتقدت

ضاقت الجدران بالجمر المذاب

يتلّوى في مساريب اللهب

وتنادت تطرق الرأس..

حروفٌ من حرابٍ

وتلّافت بجلدي

عند رأس القنطرة

أرقب الأسراب

يخفيها الطلب!

وضممتُ باليدين..

رأسي المخبأ! ما أقسى الصخب!!

وبدت بين التلافيف تعوم

أيّ زوج يا حروفَ الفتاح تدنو!

بورك العرسُ فهالك:

وانشلت الغادة الحسناً..

من بين الدماء

ثم ألفيت يدي تغسلها فوق الجبين

وإذ النار سلامٌ

ولهيبُ الحرفِ

ماء!!

**من الأدب السياسي
كوميديا السلام الحامض
ما وراء "الكوابيس"**

زياد الدريس

١ - تأبين:

وكالات الأنباء / وكالات السفر والسياحة:

تم ظهر يوم (١٣ سبتمبر ١٩٩٣م) في البيت الأبيض «إنهاء» القضية الفلسطينية، حيث أجريت

مراسم التوقيع على «حلها وإنهاها» «وسط أجواء» «مقدسة»! ساهم رابين في تأجيجهما من خلال

تلاؤه آيات توراتية من سورة «الانتصارات»، تلاه عرفات بتلاؤه آيات عربية من سورة «الهزيمة»!

٢ - نسوة في السياسة:

الذين خطبوا أو صرحوأ أو كتبوا عن اتفاق السلام بنشوء واحتقانية كانوا لا يمرون في حديثهم على معارضي الاتفاق إلا ويوسعوهم تسفيهاً وجلاً ل موقفهم من الاتفاق أيًّا كانت المعاشرة فلسطينية أو عربية وكأنهم يصادورن المعارض وبالذات الفلسطيني في التعبير عن رأيه في وطنه! بل ويتهمنه بالنفعية أو الطوباوية.

ثم ما يلبث هؤلاء المحتفلون في نهاية حديثهم القمعي حتى يكرروا تلك المقوله الجديدة في قاموس الصراع العربي/ الإسرائيلي: فلسطين شأن فلسطيني، والفلسطينيون وحدهم هم الذين يقررون مصيرهم ومصير وطنهم!

(ما أشبه هؤلاء المثقفين بتلك المرأة التي تلوك عورات جيرانها واحداً تلو الآخر، ثم تختم مائتها بقولها: ما لناش دعواة!!).

*إذا كان هذا موقفكم، فلماذا تؤيدون الاتفاق أو تعارضونه؟

*إذا كانت هذه قناعتكم، فلماذا تقفون غصة في حلق المعارضين دون المؤيدين؟

*إذا كانت هذه فلسفتكم، فلماذا تتكلمون؟!

*أما أنا فمازالت أؤمن بتلك المقوله التي علمتمونا إياها من قبل أيها المتكلمون، إن القضية الفلسطينية هي قضية العرب والمسلمين جميعاً.

*هل تذكرون هذه العبارة/ العهد، أنا لم أكفر بها حتى الآن، ولهذا فمن حقي ومعي المؤمنون الآخرون بها أن نتكلم عن فلسطين.. أما أنت فلا.

٣ - قال قائل منهم:

قبل طرح أي مشروع أو قرار سياسي عربي، ثق ثقة تامة أن الموقف منه حتى قبل الاطلاع عليه وتدوله سيكون على النحو التالي:

- سيقول المثقفون القوميون: نعم لهذا المشروع، من منطلق السعي نحو تسوية الواقع العربي، ورفض «المزايدات»!

- سيقول المثقفون الإسلاميون: لا لهذا المشروع، من منطلق السعي نحو تأمين المستقبل العربي ورفض «المناقصات»!

- سيقول المثقفون الفلسطينيون: نعم إذا قالت حكوماتهم: نعم، ولا إذا قالت حكوماتهم: لا، من منطلق: وهل أنا إلا من غزية... ولقبض جميع «المزايدات» و«المناقصات»!!

إذًا: القوميون ينظرون إلى «اليوم» لأنهم يبحثون عن الاستقرار الإسلاميون ينظرون إلى «الغد»، لأنهم يبحثون عن النصر. السلطانيون ينظرون إلى «الأمس» لأنهم يبحثون عن مواقف بطولية/ خرافية كي يدرجوها في مشروع «مذكرات سيادة السلطان»!

٤ - وطن على الريق:

آنذاك، حين كانت الشعوب العربية تقاتل من أجل تحرير أراضيها من سنة ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣ م، مروراً بكل النكسات والنكبات والنزوءات، كان المقاتل العربي في ساحة المعركة يجرح أنامله ثم يكتب بالدم اسم وطنه على علم بلاده الذي سيغرسه في ذلك الشبر المحرر!

وهكذا أراد عرفات أن يفعل في ذلك الشبر الفلسطيني الذي حرره في واشنطن، لكن المقام كان مقام سلام لا ينبغي لرائحة الدماء أن تفوح فيه، فما كان من خيار آخر لممارسة ذلك الطقس الجهادي القديم في هذه الأجواء الحمائمية سوى أن ييلل عرفات أنامله من «ريقه الناشف»، ويكتب اسم بلاده على العلم الفلسطيني. هكذا فعل عرفات، وهكذا ستدوم تلك الفلسطينيين الجديدة مadam هذا الريق!

٥ - لحية المناضل ومقص الراعي:

أيام كان عرفات مناضلاً ورقياً وقد تحول الآن إلى رئيس ورقي لم يتمالك أحد الصحفيين أن يكتم الرغبة لديه في أن يسأل عرفات: متى ستتحول طبوعرافية الوجه العرفاتي من المرحلة البرزخية بين الحقيق والمتحي؟!.. ومتى سيسليخ عرفات جده العسكري، ويلبس بدلة آدمية تنسم مع نزهاته وعناقاته الدولية؟!

لم يتوان عرفات في الإجابة، فقد كان ينتظر السؤال منذ قذف آخر موسى حلاقة، وأخر قميص «تي شيرت». قال عرفات: ستنزل كل هذه الأعراض «الفيدل كاستروية» حينما تتحرر فلسطين، ويندحر الاحتلال الإسرائيلي عن كل «شبر من أراضينا».

ومضت الأيام شعرة شعرة حتى فتح الناس أعينهم على مشهد (غزة - أريحا) أولاً، وإذا مساحة المحرر من فلسطين لا تعدل سوى 2% من مساحة الأشبار المحتلة. فهل سيحلق عرفات 2% فقط من لحيته؟!

وهل سيخلع 2% فقط من بدلته العسكرية، ول يكن الجورب الأيمن أو ليكن الأيسر، أو كلاهما معاً، فلا اليمين الفلسطيني «المتطرف» ولا اليسار الفلسطيني «المتطرف» يؤيدان الاتفاق، فما أسعده عرفات بخلعهما معاً!
٦ - ".....":

مسكينة فلسطين، لقد عاشت وعاشت حقبة طويلة من «المزايدة»، يوم أن لم يكن هناك زبون ولا بيع، وربما هي الآن وقد جاء الزبون ليفاوض فإنها تعرض عبر «مناقصة» فمن يشتري بأقل سعر؟!

٧- من أشعل الفيروس؟

مرت أزمة الخليج فطبعت في الصوت العربي بعامة والخليجي وخاصة خطاباً قطرياً طاماً لذلك الخطاب القومي الذي كان يطفح في شوارع المدن العربية حتى قبل الثاني من أغسطس ١٩٩٠، وكان مدحشاً حقاً ذلك الانقلاب السريع في اللغة والعلاقة بين العرب، وكان التساؤل الذي يهتك صمت المجالس العربية هو: هل ستدوم هذه الوعكة القطرية طويلاً؟ أم ستكون كغيرها من الوعكات العربية المتتالية التي ما ثلث أن تتجلى لتفتح المكان لوعكة جديدة؟

مهما كانت التخمينات للوعكة الشفائية القادمة، فلم يكن أحد يتصور أنها ستكون إسرائيل. لقد بدأ اللسان العربي يتهجى من جديد اللغة الإقليمية من خلال فكرة السوق الشرق أوسيطية، بمشاركة تركيا وإيران وإسرائيل «فيروس الوعكة الجديدة».

وفي خضم هذه الأعراض كان يخترق الذاكرة العربية في غيبوبتها المحببة سؤال نزق: هذه الدول العربية التي اتكأت على شجرة العزلة كأنها لم تأمن ببعضها، هل ستؤمن إسرائيل على نفسها؟!

٨- يا «سلام» سلام:

«رفع المقاطعة العربية».. «السوق الشرق أوسيطية».. «إعادة توزيع الموارد والثروات في المنطقة»، السباق الأمريكي / الإسرائيلي المحموم نحو تحقيق وإنجاز هذه الإجراءات السلمية بأسرع ما يمكن، يجعلنا نتسائل: هل كانت عملية السلام هذه منعطفاً أرادته إسرائيل لتغيير الحرب معنا من حرب عسكرية «باردة» إلى حرب اقتصادية «ساخنة»؟

٩- النكبة:

إذا كانت الأمة العربية قد مررت في صراعها مع إسرائيل ضمن ما مررت عليه من قاموس الإلحاد بالنكبة والنكسه في منعطفات صراعها المزمن فإنها الآن تمر وضمن القاموس إياها بمنعطف جديد يمكن أن يسمى: النكبة!

ففي هذا المنعطف تم نكث كل الوعود والمعاهد التي عقدت عربياً وعالمياً في نخب فلسطين:

*استعادة كل الأراضي الفلسطينية «السلبية».

*طرد دولة إسرائيل «الداخلية» من خريطة العالم العربي.

*المقاطعة العربية التامة مع إسرائيل سياسياً واقتصادياً حتى ينجلِّي الاحتلال عن كل شبر فلسطيني.

*إعادة الشعب الفلسطيني اللاجيء والنازح والمهاجر إلى وطنه.

*تنفيذ القرارات الدولية ٢٤٢، ٣٣٨، ٤٢٥، وجميع قرارات هيئة الأمم التي توشَّك الآن بجهود

أمريكية وإلحاد إسرائيلي وهوان عربي أن تُرمى جميعها في زبالة النظام العالمي القديم!

١ - كيمياء السلام:

خرج مشروع (غزة أريحا أولاً) من مرحلة البروتوكولات إلى مرحلة المنازعات ومطاردة التفاصيل بين متأهات التعميم الذي ساد بنود المشروع في جانب الحقوق الفلسطينية، ويبدو من متابعة

أولية لهذه المطاردات أن تفاعلات السلام ستعطي المعادلة التالية:

مشروع (غزة - أريحا أولاً) + (لا للقدس) ثانياً + غلبان/الفیضان
«غاز» أولاً + ریحة «ثانياً» + مشروع (لا للقدس) + (H₂O)!

١١ - قراءات في الفنجان اليهودي:

(إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، فليحتفظ اليهود بملابسهم، وإذا مُزقت دولـة الخلافـة يوماً فإنـهم يستطـيعـون آنذاـك أن يأخذـوا فـلـسـطـين بلا ثـمن!!)

السلطان عبد الحميد الثاني

(وسرعان ما أدركت أن أسلوب اليهود في الجدل يقوم على قواعد خاصة بهم، وهو اعتمادهم في أول الجدل على بلاهة خصمهم، فإذا لم يتمكنوا منه تظاهروا هم بالغباء فيستحيل على خصمهم أن يأخذ منهم أجوبة واضحة)!

أدولف هتلر

(تغلغل اليهود في ديارنا.. ونحن راجعون..
صاروا على مترين من أبوابنا.. ونحن راجعون..
ناموا على فراشنا.. ونحن راجعون..
وكل ما نملك أن نقوله: «إنا إلى الله لراجعون»!)

نزار قباني

(أخي إن ضج بعد الحرب «يهودي» «بأعماله»
وقدّس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزر لمن ساروا ولا تشمت بمن دانا
بل اركع خاشعاً مثلـي لنـبـكي حـظـ مـوتـانـا)

ميخائيل نعيمة

١٢ - الكاوبوي «كلينتون»:

الذين تابعوا تفاصيل الاتفاق وإعلان المبادئ، وحذافير لقاء التوقيع بزعامة كلينتون، لم يمسكوا بأيديهم سوى حقيقة واحدة مفادها: لقد كان كلينتون «راعياً» بحق!

* كتبت هذه «الكاوبويس» في ديسمبر ١٩٩٣م، وقد تأخر نشرها لظروف خاصة بالكاتب، ولحسن الحظ أن مشكلات السياسة العربية تمتد وتتمطط بحيث لا تحرق المقالات التي تتحدث عنها ولها مهما تأخر نشرها!

مراجعات أدبية

قراءة نقدية في البيان الأدبي (العدد ٧٦)

أ. د. ناصر بن سعد الرشيد

ينقسم الملف الأدبي إلى قسمين: القسم الأول النصوص الإبداعية من شعر أو قصة أو مقالة، والقسم الثاني دراسات أدبية أو قراءات نقدية، وسأبدأ بالقسم الثاني من الملف المنشور في العدد (٧٦)، فقد كتب الدكتور مصطفى بكري السيد تحت عنوان «مراجعات أدبية: رؤية في القراءة النقدية»، وببدأها بتعريفه للقراءة النقدية بأنها: «نظيرية القواعد التي تحكم تفسير نص من النصوص الأدبية، يتتأكد فيها دور القارئ بوصفه أحد منتجي النص عبر علاقة تفاعلية تصل القارئ بالمقروء، لتشعر إنتاج معرفة جديدة تتيح للقارئ توظيفها في إغناء ذاته أو في إعادة بنائها».

ولا شك أن هذا التعريف على جماله وصدقه لا يمكن له أن يستوعب كل تعاريفات القراءة النقدية، إذ من المعلوم عند المناطقة أن التعريف يجب أن يكون جامعاً مانعاً، بيد أن تعريف الدكتور «مصطفى» على كثرة ما استوعب لم يمنع أن يدخل في هذا التعريف مفردات جديدة ورؤى أخرى، فالدكتور «مصطفى» اطلق من قانون واحد وهو «العلاقة التفاعلية» كما أسماهما، أو «التواصل» بين المبدع والمتلقي، ومحاولة إعادة بناء النص، بمعنى أن الناقد مبدع، وهذه هي إحدى نظريات النقد الحديثة، وهي قراءة واحدة من قراءات النص، فالنص لاسيما الجيد عالم فسيح يمكن أن ينظر إليه من زوايا متعددة، فحينما يقرأ قراءة تفسيرية وهي التي أشار إليها الدكتور، وتارة يقرأ قراءة تأويلية، ولعل هذه القراءة هي القراءة السائدة اليوم، وهي القراءة الأفسح والأرحب، وتارة أخرى يقرأ قراءة جمالية فنية، بمعنى أن توظف فيها آلات «اللسانية» وقوانين البلاغة، والنص الجيد بعد ذلك كله هو ذلك النص الذي «لا تفني عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء».

ولقد حاول الدكتور «مصطفى» أن يعطي هذا النوع من القراءة مصطلحاً إسلامياً فسماها قراءة «التدبر»، وهو مصطلح في الحقيقة رائع وجامع ومانع فهو رائع إذ هو مصطلح قرآن يجب أن نحتفل به، وأن نحييه في دراساتنا النقدية المعاصرة، علينا نستغنى به عن مصطلح أجنبي لغربه، فلا ينسجم تمام الإنسجام مع ما نريد، فالمصطلح الذي لا يحمل ما نريد أن نضع فيه من معاني ورؤى وحمولات مصطلح ضامر ضعيف، لا يقوى على كثرة الرد ويبلى مع التكرار أو يكون موهماً لخلاف المقصود، وهو جامع لأنه يجمع كل أنواع قراءات التدبر من تفسيرية وتأويلية وفنية وجمالية، وهو مانع لأنه يمنع القراءات السريعة المبتسرة التي لا تتغلغل إلى بناء النص ولا تغوص في أعماقه، فمثل هذه القراءة إنما تستخرج من النصوص محاراتها وقواعدها، لكنها لا تصل إلى دررها وجواهرها.

لقد ركز الدكتور مصطفى على قراءة «التدبر» تركيزاً انطلاق منه إلى حكم خطير وصادب، حيث قال: «ولكن الذي مات بل في الحقيقة ولد ميتاً وجمهوره آخذ في التناقض هو اجترار الكلام والفكر المعلم والرؤى القبلية وإخضاع التعامل مع الإبداع إلى قوالب جامدة منغلقة لتصبح ذات صيغة سلطوية وسلطوية على الفكر الموضوعي، ويكون سقف الفن عندها هو المقنن الجاهز والسلبي المستهلك».

ويحذر الدكتور مصطفى من بعض أنواع القراءات التي لا تسرغ غور النص والتي تفتقد شروط قراءة «التدبر» وأنا معه في ذلك وخصوصاً تلك القراءات المعجمية التي تهمل السياق بأنواعه وما يشير إليه النص، أي تهمل إشارات النص ومنطوقاته ومخبءاته، وهذه القراءات قراءة لغوية تصلح للدراسات اللغوية، لكنها لا تصلح للدراسات النصية الجامعية، ففي هذه القراءة تغيب عن القارئ أوليات التعامل مع الشعر والأثر الفني عامّة، فهي تمكنه من الإحاطة بالمستوى الإخباري للنص، ولكنها تحجب عنه المستوى الإشاري وهو ما تزخر به اللغة الشعرية فيما وراء المؤدى المباشر، والذي يكون نظام العلاقات الدلالية والإيقاعية في النص، وهو الذي يجعل النص يفلت من الظرف المحدد، ويمتلك القدرة على البث المتجدد بحيث يخاطب أجيالاً عدّة». وليس كل نص قادر على أن يفلت من الظرف المحدد، ويمتلك القدرة على البث المتجدد مهما كان قارئه، ما لم يكن هذا النص نصاً عظيماً مثل القرآن الكريم والحديث الشريف وبعض النصوص الشعرية الجيدة الخالدة، وإنْ فإن هناك نصوصاً مهما حاولت القراءة شحنها أو مهما كان التعامل معها لا يمكن لها أن تستجيب لذلك لأنها نصوص ركيكة ضعيفة أو معادة، والقارئ مهما كانت قدرته وملكته النقدية، أو حتى موهنته الإبداعية لا يستطيع بأي حال من الأحوال «نفث الروح في نصوص ولدت ميتة»، كما أنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يُنشر الموتى، لكن إذا اجتمع النص الجيد والقارئ الجيد كان الإبداع نقداً والنقد إبداعاً، وانفلت النص من ظرفه المحدد، ومن مناسبته الخاصة أو سياقه الضيق إلى عالم واسع رحب يخاطب كل الأجيال ويخاطب كل الأمكنة ويخاطب كل الأزمنة، وكذلك هو القرآن الكريم «والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

إن لم نفطن إلى هذا الشمول في تعاملنا مع النص فإننا والحال هذه «نمارس قتل روح النص في حق النصوص الحديثة والتراثية على السواء، هكذا مانزال ندرس المتتبّي، المادح، ومايزال الموضوع أي سيف الدولة وحروبه محور شاعريته، ويغيب عننا مناخ القمم الذي يكشف عنه نظام العلاقات اللغوية في شعره، يغيب عن جواب المتتبّي على عصر تقهقر فيه العنصر العربي المسلم...» ومثل هذا يمكن أن يقال عن مرثية ابن منذور لعبد الوهاب التفعي، ومرثية ابن الرومي لابنه محمد، فالقصيدتان وإن قيلتا في مناسبتين خاصتين لكن قرائتهما يجب أن ترتفع بهما عن خصوصية المناسبة (السبب) إلى عمومية اللفظ (الفكر كله والحياة كلها)، إذ يمكن لهاتين المرثيتين أن تقرأ على أنهما تحثان رؤية فلسفية للموت والحياة وللحزن البشري والمأساة الإنسانية والتساؤل عن ما وراء الموت وهذه النظرة لا يمكن أن تتأتى إلا بمحاولة استنطاق النصوص، واستكشاف دلالاتها وإشاراتها «إن هذه القراءة تسير في اتجاهين متباينين من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص، فبقدر ما يقدم النص للقارئ يضفي القارئ على النص أبعاداً جديدة قد لا يكون لها وجود في النص».

وأختتم قراءاتي لما كتبه الدكتور مصطفى بكري السيد بإشارته إلى المشكلة كلها، وهي مشكلة تنظيم الحياة ونشاطها، وهي مشكلة الفكر، فالمشكلة النقدية هي جزء من هذه المشكلة، يقول الدكتور: «وأخيراً فإن مشكلة النقد ليست معزولة عن مشكلة الفكر عندنا، بل إن مشكلة النقد هي مشكلة هذا الفكر أو هي وجه من وجوهها».

وفي العدد نفسه كتب الأستاذ محمود مفلح تحت زاوية «نقد على نقد» موضوعاً اختار له عنوان «نقد ظالم.. ونقد نائم»، وهو عنوان مثير يبعث في سامعه وقارئه أشتاتاً من الأسئلة، وأحسب أن أبسطها وأقربها متناولاً: ما هو النقد الظالم وما هو النقد النائم؟ وهل هذا تصنيف نقيدي جديد أم هو مصطلح جديد؟ لاسيما ونحن في عصر التصنيفات الجديدة والمصطلحات المستحدثة.. إن الجواب على هذه التساؤلات وربما غيرها، وما تحدثه من إيحاءات وما تستدعيه من تفسيرات أو تأويلات، سيظهر للقارئ بعد أن يكمل قراءة هذه المقالة النقدية، فما يليث أن يجد الأستاذ محموداً يعني بالنقد

النائم النقد الذي يتناول النصوص الإسلامية (حسب قوله)، والنقد الظالم هو النقد الذي يدور في «فلك الحداثة والتغريب والأشكال التعبيرية الجديدة التي يكتنفها الغموض ويشكل لحمتها وسداها اللغز والأسطورة والسرور (يعرفون) لها ويؤولونها ويحاولون جاهدين أن يقنعوا القارئ بأهميتها وريادتها»، أما أن النقد نائم في رأي الأستاذ محمود فلأن «صوت النقد في صحفتنا الأدبية الإسلامية ومن أفلام كتابنا خافت جداً».

وأحسب أن القارئ لما كتبه الأستاذ محمود الذي يعالج نوعين من النقد قائمين اليوم، وإن كان أحدهما يظهر على الآخر (نقد إسلامي ونقد مستغرب) عليه قبل أن يسلم للأستاذ محمود أو لا يسلم. أن يعرف الأدب الإسلامي (أي النصوص الإبداعية) وما مواليفات كونها إسلامية، وما مواليفات كونها غير إسلامية أو مستغربة، وما هو المبدع وما نوع إبداعه، وهل للمبدع رسالة وما الفرق بين الإبداع وبين التعليم، وهل للشكل أثر في كونه إسلامياً أو غير إسلامي، وهل «الأشكال التعبيرية الجديدة» غير إسلامية؟ كل هذه التساؤلات ومعها غيرها مثلها أو تزيد يجب أن يجاب عنها من قبل الأستاذ محمود أو من قبل رابطة الأدب الإسلامي، وأتمنى أن تترك لرابطة الأدب الإسلامي.

وإذا كان الأدب الإسلامي حسب مفهومي الذي اقتبسته من القطبين (سيد ومحمد) هو باختصار (كل تعبير فني جميل يعبر عن الإنسان وقضيته وعن الوجود والكون والحياة ، وما وراء الحياة، وعالم الغيب والشهادة، تعبيراً لا يخالف ضوابط الإسلام وأصوله)، لو أخذنا بهذا التعريف الأولي للأدب الإسلامي لوسعنا دائرة واغتنينا مجالاته ونفيينا عنه الجمود والضيق والقولبة الضيقة، وأخرجناه «من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

وأذكر أنني قلت في تعليق لي ذات ليلة في ندوة من ندوات الأدب الإسلامي المباركة، تعليقاً على الأستاذين الفاضلين الدكتور عبدالقدوس أبو صالح والدكتور عبد الباسط بدر، حول رأيهما في تعريف الأدب الإسلامي: «أود أن ننظر إلى الأدب العربي كله بعد الإسلام على أنه أدب إسلامي، وأن نخرج منه ما خالف الإسلام على أنه أدب شذ عن منهج الأدب الإسلامي في مضمونه أو في تعبيره، كما أنتي لا أميل مطلقاً إلى تتبع بعض النصوص الأدبية في تراثنا الإسلامي وإبرازها على أنها نصوص إسلامية، وأن ما سواها ليست كذلك».

وأعتقد أننا لو أخذنا بهذا الرأي لوجدنا أن جملة نصوصنا الأدبية هي نصوص إسلامية حتى إذا ما عرضناها على التعريف الآنف، وجذناها تدرج تحته بكل تواءم وتناغم، ولو أخذنا مثلاً شعر أبي نواس برمته وجملته لوجدنا أن أكثره شعره يندرج تحت ذلك التعريف للأدب الإسلامي، وإنما خرج من ذلك التعريف إنما هو شاذ يمثل الأقل، ومثله يقال عن أبي تمام وشعره والتجدد في الشعر شكلاً أو مضموناً ليس بالضرورة أن يكون غير إسلامي كما أن عدم التجدد في الشعر شكلاً أو مضموناً ليس بالضرورة أن يكون إسلامياً.

وأحسب أن من الأخطاء التي يقع فيها المنظرون للأدب الإسلامي أن يعتبروا بعض الأشكال الشعرية الجديدة، أو بعض التعبيرات الشعرية الحديثة التي تحاط حيناً بالغموض وحياناً آخر بالإبهام أدباً غير إسلامي، أو أدباً يتعارض مع الإسلام، والنظر هنا والحكم على كونه إسلامياً أو غير إسلامي يجب أن يتوجه إلى المحتوى والمضمون، ولقد كفتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه مؤنة ذلك كله وكأنها تجib عن هذا التساؤل بقولها: «الشعر كلام (كسائر الكلام) حسن وقبيحه قبيح».

ولا أكتم أخي الفاضل الأستاذ محموداً أنني في يوم من الأيام كنت مستوحشاً من بعض النصوص الجديدة ولا أزال أستوحش من بعضها لأنني كنت قد جئت إليها بتصور مسبق على أنها صورة من صور الهم، أو وعاء من أوعية الغزو الثقافي، أو وسيلة من وسائل التغريب والاستلاب (وهكذا

ينظر في أغلب الأحيان إلى كل جديد وخصوصاً في المجتمعات المحافظة مثل مجتمعنا)، بيد أنني بعد أن وطئت حماها، وخضت حمأتها، وحاولت أن أعقد نوعاً من الألفة بيني وبينها، بدلاً من الوحشة، افتررت لي عن بعض محسنها وأسفرت لي عن بعض مناقبها، وعرفت أن هذا النوع من التعبير ليس بالضرورة أن يكون متمرداً على القيم الإسلامية، وإنما هي مسألة صراع الأجيال والاتصال الحضاري الرهيب والثقافي المتشارع (وإن كنا الأضعف في حلبة الصراع الحضاري والثقافي).

أقول هذا لأنني قد وجدت في بعض هذا النوع من الشعر بعض المضمونين الخيرة وخصوصاً موضوع «الهوية»، والبحث عن الذات وسط هذه الانكسارات وإزاء هذه الانتكاسات والمحن، وأحسب أن محمدًا الثبيتي واحداً من هؤلاء الشعراء في قصيده: «فواصل من لحن بدوي قديم» و«صفحة من أوراق بدوي»، وما يقال عن الثبيتي يقال عن بعض من الشعراء غيره، ومنهم الشاعر عبد الله الصيخان في عدد من قصائده التي احتواها ديوانه «هواجس في طقس الوطن» كقصيده «الحجرة»، وقصيده «فاطمة»، وقصيده «هواجس في طقس الوطن»، ومنهم الشاعر عبد الله الزيد في «أغنية للوهج» و«وجع المسافة بين دمك وثلاثة الموتى»، في رثاء أخيه محمد، ومنهم الشاعر عبد الله الخشمي في قصيده «وصايا النخيل»، ولوأخذنا الشاعر الكبير عبد الرحمن العشماوي على أنه من شعراء الأدب الإسلامي الشباب فسنجد شعره ينضح إسلاماً في شعره العمودي المأثور أو في شعره الجديد «بانعة الريحان» على السواء مما يبرهن على أن الشكل التعبيري الجديد ليس بالضرورة أن يكون موحشاً أو أن يكون وعاء خطيراً يتناهى والأدب الإسلامي. وبعد: فإن لم ننتبه إلى هذا فإننا سنخنق الأدب الإسلامي في بونقة ضيق، ونجعله في حيز ضيق يفقد فيه نموه وانطلاقته، وربما أدى ذلك إما إلى عقمه وإما إلى موته.. وأرجو ألا تكون بعض مواقفنا المتشددة في فهمنا للأدب الإسلامي، وسجنه في حيز الوعظ والتعليم والتعبير المباشر، هو ما حدا ببعض النقاد أن يتجاوزوا هذه النصوص إلى نصوص أخرى وصفها «محمود مفلح» تارة بأنها تدور كلها في تلك الحداثة والتغريب والأشكال التعبيرية الجديدة التي يكتنفها الغموض ويشكل لحمتها وسدادها اللغز والأسطورة والسرور «ويفلسفون» لها ويؤولونها ويحاولون جاهدين أن يقنعوا القارئ بأهميتها وريادتها، وتارة أخرى يلحى باللائمة على نفر من نقاد الحداثة والتغريب (كما أسمائهم) بأنهم يقدمون نصوصهم التي يقرؤونها ويتناولونها بالدراسة «إيدياعية ومعاصرة ومهمة وجذيرة بالقراءة... إلا النصوص الإسلامية!!! أو ما يقترب منها، فإنها في زعمهم فقيرة متخلفة، فجة، تغلب عليها الخطابية والسطحية، وهي تجافي روح الفن، وتتنافى مع الحساسية الجديدة والرؤية المعاصرة».

كما يسوء الأخ الأستاذ محمود مفلح التعاون الوطيد بين هذا النوع من النقاد تعاوناً يرفع بعضهم من شأن بعض، ويدعو بعضهم لبعض حسب قوله: «إن المتأمل كذلك فيما يكتب من نقد هنا وهذا لا بد وأن يلاحظ أن ثمة اتفاقاً وإجماعاً على توجه نقيي معين، وأن ثمة جسوراً تقام بين هذا الناقد وذاك، فكان هذا هو الصوت، وذلك هو الصدى في تناغم عجيب واتفاق يبعث على الدهشة».

أقول للأخ محمود وغير محمود: إن التنافس بين الاتجاهات النقدية المتشارعة لا يحسمها مثل هذا التشكي وذلك التظلم، وإنما يحسمها العمل فلكل منتاده ولكل رابطه، وأعرف أن للأدب الإسلامي رابطة تجمع كثيراً من أدباء العالم الإسلامي عربه وعجمه ومبدعيه وناقديه، فالحلبة ميسرة للجميع وإن الحصيف المبدع المجدد هو من سيظهر في النهاية على صاحبه، وكما كان الشعراء في عهدبني العباس يميت بعضهم بعضاً وحمل بعضهم ذكر بعض بما يقدم للساحة الأدبية من إبداع جديد ، فإن النقاد والمبدعين في هذا العصر يظهر بعضهم على بعض، ولا أشك لحظة واحدة في أن المبدع

الذي يلمس جراحات أمته وواقعها، ويحقق هويتها من خلال رؤية جديدة أو تعبير جذاب، هو الذي سيقى وغيره سيدذهب جفاء، وما الشاعر الإسلامي الدكتور عبد الرحمن العشماوي إلا مثل أسوقه للشاعر المتألق المتجدد ذي الصيت الذائع.

ويحمل بي وقد أطلت الوقفة مع الأستاذ مفلح أن أختتم قراءتي لمقالته بتعليق بسيط على قوله: « واستعرض إذا شئت الصفحات الأدبية الإسلامية في أي مطبوعة تشاء، فإنك قل ما تجد دراسة أدبية جادة عميقه ذات رؤية نقدية واضحة تتسمج مع قيمنا الحضارية وتعطي لهذا العمل أو ذاك حقه ، ولن تجد كذلك توجهاً نقدياً عاماً واضح المعالم، ولن تجد أيضاً وأقولها بمراارة أسماء نقاد جادين دؤوبين مخلصين لهذا الفن أو ذاك رغم أن النتاج الإسلامي معافى ومقروء ولا يخلو من جماليات تستحق أن يتوقف عندها النقد»، فلم هذا! فهو أمر يتعلق بالنتاج الإسلامي أم هو أمر يتعلق بالنقاد أنفسهم !!

أما القسم الإبداعي فسأتوقف ملياً عند بعض القصائد وعند قصة واحدة وأما القصيدة التي أود أن أقرأها على عجل فهي قصيدة الدكتور صالح الزهراني بعنوان «رتابة»، وهذه القصيدة ساعدتها قصيدة إسلامية على أن التعليم فيها أو المباشرة ليست واضحة، وإنما أعدها إسلامية لأن موضوعها يعالج أمراً من أمور هذه الأمة، وموضوع القصيدة الرتابة في كل شيء والزيف في كل شيء، وأن كل شيء هو ذلك الشيء لم يتغير ولم يتحول، وأن الخطأ والكذب على الشعوب هو الكذب، وأن الهزيمة نصر وأن الفتح رقص وغناء ومائدة.. موضوع يصلح أن يكون إسلامياً وغير إسلامي، بمعنى أن مثل هذا الموضوع لا يصنف إسلامياً كما أنه لا يصنف غير إسلامي، أقصد من هذا أن أعود إلى بعض ما أسلفت حين قراءتي لما كتبه الأستاذ الفاضل محمود مفلح، وأبرهن على أن الأدب الإسلامي قد يتسع حتى يدخل فيه ما لا يخالفه، لكن ليس بالضرورة أن يكون موضوعه إسلامياً صرفاً أو تعبيراته تعليمية وعظية.

إن الشاعر الزهراني شاعر يملك قدرًا هائلاً من الإبداع مارسه في هذه القصيدة الجميلة، وأية توفيقه أنه جعلها أو أنها جاءت على بحر مجزوء قوي الإيقاع (رجز) وقافية متحركة ساكنة، فالناء المربوطة ساكنة وما قبلها مفتوح حتى يتلاءم البحر مع القافية، لقد عبر الشاعر الزهراني عن ما يدور في حاضر هذه الأمة وما يقدم لها من إعلام وزيف أصبح مستهلكاً ومكشوفاً، أي لم يعد ينطلي على أحد إذ أصبح هذا الزييف ديدناً أي «رتابة»، وحاول الزهراني أن يحدده بتسعين سنة، ولا أدرى بالضبط لماذا «تسعون حجة» والزمن هنا لا يهم تحديده فالقصيدة ليست وثيقة تاريخية تؤرخ لبداية خمود ثورة الوعي، والمهم أن هذه الثورة خامدة وبرهان هذا الخمود:

يبدأ العرض مينا! فوق أشلاء صامدة
البدايات واحدة والنهايات واحدة

ويعود هذا المشهد في كل مرة فيبدأ العرض ميناً والبداية واحدة والنهاية واحدة، والأنكى من ذلك أن:
بطل العرض واحد وقصة العرض واحدة
بعد يوم من الضنا والوجوه المزايدة

يأتي العرض لكن من مُخرج واحد ومن عارض واحد ومن قصة عرض واحدة، فهل يوقف الجماهير
الراقدة بإعلان الفاتح

عن فتواحات جيشه عن قواه المجاهدة
أنها شقت المدى واستباحت وسائله
وأراقـت دم الدجى وأضاءـت فراقـده

والجماهير تدرك هذا الزيف لأنها اعتادت عليه، لكن شاعر الهوى يتهجى قصائده فلا يحرك ساكناً في هذه الجماهير الجامدة ولا يواظبها لأنها:
عرفت كيف ينتهي
عرفت كيف يبتدي
أصبح الزيف قاعدة!!

مسكين هذا الفاتح الذي تنتهي فتوحاته بالرقص والغناء والتطبيل والمائدة دون أن يتفاعل معه جمهوره، لأن جمهوره يعرف زيفه وخداعه، وأن هذا الفصل منذ تسعين حجة يعود ويعد وتحفظه الجماهير التي أصبحت جامدة لا يحرك فيها ساكناً، وهنئاً لهذه الجماهير النائمة التي لا تتحرك، ولعل الصحوة تعقب هذا الرقاد لأن الرقاد هنا والجمود هنا علامات إدراك الزيف وإدراك الزيف هو أدل دلائل اليقظة.

أما القصيدة الثانية فهي «دمعة على أطلال سربنتسا» للشاعر فيصل محمد الحجي، وهي قصيدة معبرة حمل فيها المسلمين مسؤولية ما حدث لهذه المدينة من حصار وقصف شديد، إذ لم يحفظوها كما يحفظ الحرارة بالدم، وأراد أن يثير فيها النخوة وحمية الإسلام، وحق الأخوة وواجب النصرة، بتعييرنا من طرف خفي بتقاعسنا، ولمح لنا بأننا لم نفعل كما فعل هارون والمعتصم بالروم وتذكيرنا بتاريخنا هنا ليس يقصد منه الشاعر إعلامنا بأن هارون أو المعتصم قد هبا يوماً لنجد مسلمة أو مسلم استغاث بهما أو احتاج إلى عونهما، فهذا خبر نقرأ في مقرر اتنا المدرسية الأولى، لكنه أراد أن يعييرنا بتقاعسنا، وأن يعقد مقارنة بين ضعفنا الراهن ووهننا القائم، وبين قوة وشهامة أسلافنا، فيذكر (هارون الرشيد) مقابل (نفور) حيث يجعل من الرشيد رمزاً للقائد المسلم وللرئيس المسلم ذي النجدة والشهامة الذي يشعر بأنه مسؤول أمام الله ومحاسب على ذلك إن فرط بعدم حماية مسلم أو مسلمة، حتى ولو كانت في بلد غير إسلامي، ويجعل من من «نفور» رمزاً للصلبي الغربي المعتمدي على حرمات المسلمين وأوطانهم، فإن كان الرشيد حياً أدبه وعلمه كيف تسان حريات المسلمين وأراضيهم، وإن كان الرشيد ميتاً صاح «نفور» وجال وانتهك الحرمات، وجبا الأموال منا بطرق متعددة، وعجزنا أن نفعل شيئاً رغم كثرة عدتنا وعتادنا، ووجدنا أن الملجأ من هذا كله إلى مجلس الأمن نعرض فيه قضيتنا، وجعلنا منهم الخصم والحكم في الوقت نفسه.

والقصيدة في جملتها قصيدة معبرة جياشة تصلاح أن تلقى، ولو أقيمت لكان أشد أثراً على المتلقى من مجرد قراءتها، على أن هذا الأثر قوي على قارئها، وهي قصيرة تحمل رسالة خيرة، ونقول لشاعرنا الحجي:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وليس مح لي الشاعر محمد البراهيم على عدم قراءة قصيده «ذكري العبور» رغم استحقاقها للدراسة القراءة، فهي قصيدة لا تقل عن أخواتها إن لم تتفق ببعضاً منها، لكن ضيق الوقت لم يسمح لي بذلك من ناحية وشعورني بأن القصيدة تحتاج إلى وقفة أطول تتصفها، وتقدمها لقارئ تقديمياً يليق بها من ناحية أخرى، ولعلي في قادم الأيام أتمكن من قراءتها.

أما قصة عبدالحليم البراك فقد كتب قصة طريفة عنوانها «شيء لم يحدث» اختصر كل أحداثها في هذا العنوان السهل، والقصة واقعية عرضها عرضاً فنياً موفقاً ليس فيها تكلف بعض القاصين، ولم يحاول أن يدخل فيها فضولاً كما يفعل بعضهم، وإنما حبكتها حبكة محكمة، وكل حلقة من حلقاتها تستطيع أن تكلملها بقولك «وكان شيئاً لم يحدث».

إن بطل هذه القصة وإن كان يرقب جدار صمت قد امتدت قامته حتى الأفق يثنية هذا الجدار من أن يعانيه، وهناك «فتحة علوية تكاد تختفي في ثنايا هذا الجدار الشامخ.. ثمة نور ضئيل منها»، وعلى

صعبه الأمر حيث الجدار يعائق الجدار، وهذه السلسلة الحديدية التي لم تستطع أن تشق أنفاسه الحرقة داخله»، فإن هذا لا يمنع من الفرحة «وكان شيئاً لم يحدث».. إن هذه القصة تروي أحداث شاب محاصر لكنه لا يستسلم لأنه ينظر إلى كل شيء دون ما يأبه لعواقبه «وكان شيئاً لم يحدث».

أن القصة لا تحتاج إلى تأويل أو تحرص، وإن كان القاص حاول أن يشغلنا عن تقريرية القصة ببعض الإبهام مثل قوله: «ألهـا» دون معرفة عائد الضمير، وهذا مما يشوق القارئ لمحاولة معرفة على ماذا يعود الضمير، ومثل «ثمة جموع وقحة» ما هي هذه الجموع؟ إن الإجابة على هذه التساؤلات التي طرحتها القاص وهي التي جعلت من قصته عملاً أدبياً جيداً تظهر في مكان آخر حين «يتمخض عن انفجار مدو يحصد أربعة من ذوي الأكتاف المذهبة فأكثر من عشرة قد زينت أذرعهم الوقحة بشرائط خضراء»، هؤلاء الوفحقون يسمىـهم المحلفون والمحاكمون بأنـهم «أربع حمامات»، ولا يخفى ما لهذه المفارقة من أثر فني رائع.

كل هذا يحدث لكنه بالنسبة له «ـكـان شيئاً لم يحدث»، إن لدى القاص ملـكة فنية استطاع من خلالها أن يوظـف عبارة «ـوـكان شيئاً لم يحدث» في أربـعة سـيـاقـات من القـصـةـ، كل عـبـارـةـ توـحـيـ بـمعـنىـ جـدـيدـ وبـمعـنىـ مـغـايـرـ، إنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ السـحـرـيـةـ «ـوـكانـ شيئاًـ لمـ حدـثـ»ـ هيـ كـلـ شـيـءـ فـيـ هـذـهـ القـصـةــ هيـ عـنـوانـهاـ وـهـيـ بـداـيـتهاـ وـهـيـ نـهـاـيـتهاـ، وـهـيـ عـقـدـتهاـ، وـأـحـسـبـ أنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ السـحـرـيـةـ «ـوـكانـ شيئاًـ لمـ حدـثـ»ـ تـكـفـيـ الأـخـ القـاصـ عـبـدـالـحـلـيمـ الـبرـاكــ أـنـ تـضـعـهـ فـيـ عـدـادـ القـاصـينـ ذـوـيـ الـطـرـحـ المـلـزـمـ وـالـقـدـرـةـ الـفـنـيـةــ.

وأخيراً فقد حرصت على أن أتناول قصة الدكتور الحبيب «حدث في السوق» إلا أن الدكتور مصطفى بكري قد قرأها قراءة لا أرى عندي عليها من مزيد.

المسلمون والعالم على أطلال اليمن: المجد لكرسي الحكم!

د. عبد الله عمر سلطان

مع تصاعد موجة عدم الاستقرار والحرروب المصغرة على مستوى العالم بدا واضحاً أن الشعارات الفضفاضة كالنظام العالمي الجديد، وزوال خطر الحرب النووية، وانتصار الديمقراطية النهائية (بصورتها الغربية)، ونكتة نهاية التاريخ وبزورغ فجر السلام المزعوم... لا يمكن أن تغطي سوأة الأحداث الملتهبة والإفلات الذي تشهده الساحة السياسية الدولية، أو أن تحجب كساح الأمم المتحدة التي لا تحمل من اسمها سوى الرسم، ومن مضمونها القبيح إلا هامة بطرس غالى وسمعته المثيرة للغثيان.

وفي هذا الخضم الفوضوي والدواير المتلاقيـةـ، أخذـتـ مـراـكـزـ الـدـرـاسـاتـ الغـرـبـيـةـ تـبـحـثـ باـهـتمـامـ عنـ ظـاهـرـةـ مـثـيـرـةـ لـلـجـلـدـ:ـ وـهـيـ مـسـتـقـلـ بـالـلـيـسـارـ فـيـ الـعـالـمـ لـاسـيـماـ النـصـرـانـيـ منهـ،ـ فـفـيـ المـجـرـ أـزـاحـ النـاخـبـونـ الـحـكـومـةـ الـلـيـبـرـالـيـةـ الـدـيمـوـقـراـطـيـةـ الـتـيـ خـلـفـتـ نـظـامـ الـسـتـارـ الـحـدـيدـيـ الشـيـوـعـيـ؛ـ ليـقـفـزـ الشـيـوـعـيـونـ مـرـةـ أـخـرىـ إـلـىـ السـلـطـةـ،ـ بـيـنـماـ يـتـوـقـعـ أـنـ يـشـهـدـ الـعـالـمـ الـحـالـيـ عـوـدةـ قـوـيـةـ لـلـيـسـارـ فـيـ أـورـباـ لـاسـيـماـ الـمـانـيـاـ،ـ حـيـثـ يـسـعـيـ الـدـيمـوـقـراـطـيـونـ الـاشـتـراكـيـوـنـ إـلـىـ الـوـصـولـ لـلـحـكـمـ،ـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ يـظـهـرـ أـنـ حـزـبـ الـعـمـالـ الـبـرـيـطـانـيـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ إـسـقـاطـ حـكـمـ الـمـحـافـظـيـنـ الـذـيـ لـاـيـزـالـ يـحـكـمـ لـعـقـدـ وـنـيـفـ؛ـ

ليزيل أسطورة التفوق اليميني في المجتمعات «الأنجلو سكسونية» كما حدث العام الماضي في كندا ومن قبلها الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد أظهرت نتائج الانتخابات الأوروبية هذا التوجه، حيث سجلت الأحزاب ذات التوجهات اليسارية تفوقاً واضحاً لاسيما في البلدان التي تحكمها الآن أحزاب يمينية ومحافظة، لكن هذا الصعود الظاهر لا يمكن أن يخفي في طياته بعض الملاحظات الجوهرية وأهمها أن اليسار اليوم هو يسار يختلف في ملامحه وتوجهاته عن يسار السنتينيات، حيث خفت حدة الطرح السياسي وأخذ اليسار الحالي يتوجه كثيراً نحو الوسط ، لاسيما في طروحاته الاقتصادية هذه الطروحات في حد ذاتها تجعله اليوم يؤمن أكثر بقداسة السوق والآياته بعد أن كان يلعنها ويمقتها ويصنفها على أنها من آثار الإقطاع والرجعية، وهو بإضافته قضية البيئة والمخاطر المحدقة بها شكلاً نقاط جذب وكسب بعد أن أصبحت مشكلة البيئة ملحة لاسيما في أوروبا المكتظة سكانياً والمعادية بحكم وثنيتها للطبيعة في خضم معركتها معها لقهرها وإذلالها، وإضافة إلى هذه الملاحظة فإن المرء لا يمكن أن يتجاهل تراجع اليسار الحاكم في دول كفرنسا وأسبانيا على سبيل المثال، حيث شكلت النتائج الأخيرة مصاعب جمة لليسار لايزال يتربع على سدة الحكم.

كل هذه العوامل تجعل أنصار الدورة التاريخية لنفسير الأحداث وتشريح الجسم السياسي ينتشون، وهم يوظفون هذه السلسلة الحاشدة من الأحداث للتدليل على نجاح نظريتهم القائلة: بأن الغرب منذ القرن الماضي يشهد دورة كل ثلاثين سنة، ينقلب فيها الناخبون من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار بعد أن يفرغ كل جيل من هذا الطرف أو ذاك برنامجه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن هذا التوازن حفظ لأوربا الغربية وأمريكا التوازن المطلوب لتكريس الهيمنة، وتجديد الدم المطلوب لخوض معركة الهيمنة الدولية.

إن اليسار هو نتاج وإفراز متراكם للتجربة الغربية، لذا فإن دوره في الحياة الغربية مفهوم، كلما شعرت المجتمعات هناك بأن «اليمين» قد استنفذ طاقاته وأفكاره، واليسار هناك لا يكف عن تطوير شعاراته ونظرياته وممارساته في سبيل «المصلحة القومية»، وهو في سبيل هذا لا يتجاهل مثلاً مكونات الحضارة التي ينتمي إليها، أو يتعامى عن صعود الشعور الديني الملتئب في العالم والغرب وإذا استثنينا ديناصورات الماركسيـة المتحجرة، فإن بإمكاننا القول أن اليسار الأوروبي من خلال الأمثلة الحاكمة في أوربا وأمريكا لا يخفي عداءه المتـصل للإسلام وأهله، وإن أضاف إلى نظريته العادئية بعض الأطر الفلسفية المطلوبة.

لقد أردت باستعراضي هذا الدخول إلى موضوع مهم هو «دور اليسار العربي في واقع الحياة العربية الحالية ومتراكـمـ السـحبـ الدـاكـنةـ التيـ تـلـفـ حـاضـرـنـاـ» فقد وصلـتـ الأمـةـ إـلـىـ شـفـاـ الجـرفـ المـاثـلـ بـعـدـ سـلـسـلـةـ طـوـيـلـةـ مـنـ عمـلـيـةـ الـاستـلـابـ السـيـاسـيـ وـالـعقـائـديـ وـالـاقـتصـاديـ، وـجـاءـتـ مـأسـاةـ الـيمـنـ لـتـبـرـهـنـ لـنـاـ جـمـيـعاـ عـلـىـ أـنـ التـشـرـذـمـ لـاـ حدـودـ لـهـ، وـالـمؤـامـرـةـ لـاـ نـهـاـيـةـ لـهـ، وـالتـوجـسـ الـقـائـمـ مـنـ المـخـاطـرـ الـقادـمـةـ لـهـ أـلـفـ سـبـبـ يـبـرـهـ، لـقـدـ ضـرـبـتـ الـيـمـنـ مـثـلاـ؛ لـأـنـهـ نـمـوذـجـ يـسـتحقـ الفـحـصـ وـمـأسـةـ تـفـرـضـ نـفـسـهـ مـعـ اـسـتـمـرـارـ النـزـفـ وـالـدـمـ الـمـرـاقـ وـالـحـلـمـ الـمـتـهـشـمـ وـتـسـاءـلـتـ عـنـ دـورـ النـيـارـاتـ الـعـلـمـانـيـةـ وـالـيـسـارـيـةـ بـخـاصـةـ فـيـ صـنـعـ هـذـهـ الـمـأسـاةـ حـيـثـ يـبـحـثـ الغـرـبـ عـنـ دـورـ لـلـيـسـارـ يـلـعـبـهـ، بـيـنـماـ كـانـ الـيـسـارـ الشـيـوـعـيـ فـيـ عـالـمـاـ الـعـرـبـيـ يـنـقـلـبـ لـيـتـحـولـ إـلـىـ «ـإـنـزـيمـ»ـ مـضـافـ إـلـىـ التـفـاعـلـ الـمـفـزـعـ فـيـ الـيـمـنـ لـيـحـولـهـ إـلـىـ سـاحـةـ تـرـقـعـ فـيـ الـحـنـاجـرـ بـشـعـارـاتـ بـرـاقـةـ تـخـلـطـ بـوـاقـعـ مـزـرـيـ؟ـ!

ويسار اليمن مثلاً:

وقد يقول قائل: إن الأزمة اليمنية وال الحرب الأهلية القائمة هي من صنع القبيلة الحاكمة التي تخنق تحت رداء الحزب، وتسكن القصر الجمهوري وترفع شعارات الوحدة، بينما تتعاطى القات السياسي،

وتسعى في نفس الوقت إلى استثمار حماس الدعاة وطيبة الإسلاميين وتعاطف الشارع معهم، ليخوضوا معركتها ويفصلون جهاداً على مقاييس المرحلة، وإن الاشتراكيين في جنوب اليمن بتوجههم الانفصالي يحمون شعبهم وثرواته من نزوات الحكم الشمالي وقد يبدأ هؤلاء بسرد مساوى النظم في الشمال، وما أنت به الوحدة من مأس وأضرار على الشطر الجنوبي السابق، ونحن حين نحصر التسلسل في هذا المقال حول دور اليسار العربي في المثال اليمني، قد نضطر إلى الاستشهاد بواقع أو مشهد ماثل الآن، لكن ليس الغرض هنا تحليل الحرب الأهلية القائمة أو الممارسات السياسية هنا وهناك، بل الغرض إلقاء الضوء على ممارسة اليسار العربي لاسيما في اليمن خلال الأزمة المحتدمة هناك.

يدعى الماركسيون منذ قديم الزمن أنهم وحدويون حتى النخاع ومستشهدون في سبيل يمن واحد، ويكتفي للتدليل على ذلك أن تتأمل قائمة الأحزاب اليمنية التي نبتت بعيد إعلان الوحدة والتعددية الحزبية، لتجد أن كلمة «وحدة» أو «وطني» أو «موحد» أو «اتحادي» تشكل العامل المشترك بينها، حتى إنك تقاد تخلط بينها من شدة التشابه.

واليساريون في اليمن ليسوا مقصورين على الحزب الاشتراكي في الجنوب، بل إن أحزابهم «الوحدة» في الشمال أكثر بسبب الانفتاح السياسي الذي لا يخشى من تجمعات سياسية كل رصيدها بضعة يساريين حالمين، ومقر مستأجر، وخط تليفوني ومطبوعة لا يقرأها إلا مصحح المطبعة وأعضاء الحزب الطليعي، ورصيد طبعاً يصب فيه حساب يتضخم مع كل دور يلعبه الفتىاني اليساريون الوحدويون التقديميون!!

ولا شك أن الاشتراكيين الجنوبيين هم أكثر التيارات اليسارية تطرفاً في قضية الوحدة، فالحزب ظل لأكثر من عقدين يحلم بالوحدة، و يجعلها هدفه الأسماى وقضيته التي لا تقبل المساومة، وحين شكلت الوحدة مخرجاً من المأزق الناتج عن انهيار الاتحاد السوفياتي ووسيلة لتحسين سمعته البالغة السوء في المنطقة (حارب جيرانه السعوديين والعمانيين والشماليين ثم التقت إلى الرفاق فأوقع بهم مجررة لا تقارن بشاعتتها بالحرب الدائرة الآن)، لم يتتردد الوحدويون الاشتراكيون في تبنيها دون أن يكون للشعب في الجنوب أي رأي أو مشورة وبخاصة أنهم قطعوا من المختلفين الذين فشلت الثورة في جعلهم من بلوريتاريا الحزب..!

وما أسرع اللحظات التي تمر فإذا الحزب اليوم ينادي بالانفصال ويقاتل من أجل التشطير، ويهرب قادته من العاصمة إلى المدينة الساحلية الرجعية «المكلا» لكي يكملوها ما بدؤوه من مخطط الدولة التي يستطيعون أن يستمروا في حكمها، بعد أن رأوا لعبة الكراسي الموسيقية تقذف بهم خارج المنافسة في ظل منافسين محترفين في الشمال.

لقد نسف الحزب ورموزه الفارين كل البرامج والشعارات والأحلام الوحدوية التي طالما تغنوا بها، وأصبحت كلمة وحدة تتبرأ لهم حساسية في الصدر، وحكمة في الجلد، وتهيجاً في الأعصاب، وغدت كل المصطلحات الثورية والوحدة جريمة لا تغفر بين الرفاق اليساريين، في الوقت ذاته بدأ اليساريون في الشمال من ورثة الشعارات الوحدوية إزاحة منافسيهم في الصناعة الوحدوية والسوق الاتحادي، كل ذلك يتم باستخدام نفس المصطلحات الثورية التقديمية اليسارية. قام الاشتراكيون في الجنوب بثورتهم في سبيل «الكافحين» ومن أجل إنهاء الإقطاع، وإطفاء نار الاستغلال الطبقي الذي كان يمارسه السلاطين وأصحاب النفوذ ومن يسمون «بالسادة» والسيد هو الذي ينتهي نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم - وينتشر جل هؤلاء السادة في الجنوب حيث يشكلون طبقة من علماء الصوفية التي تمارس شعوذتها باسم الانتساب إلى آل البيت، لقد صمم الشيوخ عيون في الجنوب على أن الدين وأتباعه لاسيما السادة هم عدوهم الأول ولاسيما «رابطة أبناء الجنوب» التي

كان السادة يتسترون من ورائها ويمارسون من خلالها نشاطهم السياسي، ومع الردة عن المبادئ الأولى شكل الجنوبيون المنفصلون دولة يرأسها سيد من هؤلاء السادة (البيض)، ويرأس حكومتها سيد آخر (العطاس)، ويدبر أمورها في الواقع رئيس الرابطة الصوفية السابق (الجفري)، وتجمع عدداً لا يأس به من سادة آخرين، حتى إن الشارع الجنوبي أسمها «دولة السادة».

ترى هل هذا تكفير عن اثم الماضي أم جواز سفر مطلوب لإثبات رجعية النظام وقدرته الفائقة على الرقص في حلبة الدراويش، وإثبات للجدية في الانقلاب من متطرفين ماركسيين إلى رجعيين يخدرن المربيين بهجمات الأقطاب وكرامات السادة الذين طلقوا كل مبدأ ومحنة؟!

وإن كان الشيوعيون الملاحدة في الأمس يعادون المشايخ التقليديين فإنهم ظلوا بالأمس، ولا يزالون يرحفون لافتة ضخمة تقول إنهم ينادون بالدولة العصرية التي لا تحكم فيها القبيلة كما هو الواقع في الشمال، ويتباهون دائمًا بأنهم قضوا على القبلية نهائياً في الجنوب، فهل هذا صحيح؟!

الواقع يقول إن اليساريين شمالاً أو جنوباً قد ارتدوا وتشذموا وانقسموا حسب قانون القبيلة والقبيلة وحدها، فالشمالي لاذ بحسن الفخذ، والجنوبي الشيوعي السابق أصبح أكثر مناطقية ورجعية من خصومه، ويكتفي أنه تحالف مع قبائل بكيل في الشمال، ومدى يده إلى قبائل «شبوة» و«حضرموت» بعد أن حطم كياناتها، وسلحها لمدة عقدين، وبات الجميع يرون أنه لا فرق بين الجمهوريين الوحدويين الذين وظفوا العامل القبلي بذكاء، واليساريين السابقين الذين يحاولون أن يطربوا وجة قبلية باستعمال جعلهم يقدمون وجة سريعة عشرة الهضم، صعبه الفهم.

ويتهم الماركسيون القدامي ومومياوات العصر الشيوعي في اليمن الحكم في صنعاء بأنه صاحب علاقات قوية بالإسلاميين المتطرفين، وأنه احتضن الخارجين على القانون والإجماع العربي!!

والواقع يقول إن هذه هي أهم الأوراق التي لا يكف قادة الجنوب من التلويع بها كلما حاصرتهم الحقائق وأعياهم الواقع المتناقض، لكن مهلاً فهو لاء الماركسيون تحالفوا مع قوى متطرفة تدعى العمل الإسلامي مثل «حزب الحق» الزيدي المرتبط بإيران الدولة صاحبة الбаع الطويل في التأمر والإرهاب، ومع هذا لم يعتبروا هذا التحالف الذي استمر طوال فترة الوحدة وحتى قبيل اندلاع المعارك، نوعاً من التطرف أو الأصولية أو الرجعية!

وما دمنا نتحدث عن الرجعية فيكتفي أن نتأمل أن الشيوعيين قرروا أن يتحالفوا مع أكثر الفصائل الحاملة للراية الإسلامية ارتباطاً بالنظم المنقرضة، فقد تحالفوا مع الأحزاب الصوفية الخرافية البائدة، ومع أتباع النظام الإمامي الزيدي المتلاشي، وربما دأب الماركسيون على جمع شتات كل الفرق التي تسير في درب الانفراط وفالك النسيان.

وظل الماركسيون يعتزون بتحالفهم مع الدول التقديمية في أنحاء العالم لاسيما (الصين ماو وشيوغة موسكو) مقابل اتهام أعدائهم بأنهم صناعة الاستعمار الغربي، لاسيما قائدة الاستعمار العالمي (أمريكا)، كما أن للزمن أحکاماً وللشيوعيين منطق عجيب وقانون انقلاب مخيف، فقد أصبحت صدقة أمريكا والغرب لهم إنجازاً، والتفات مجلس الأمن لهم الذي طالما كالوه أقذع الشتائم أصبح وعيًا وتحضراً، وأصبحت الزيارات العلاجية لأمريكا وأوروبا مسابقة يتنافس عليها الأمين العام للحزب مع منظر الحزب مع فراش الحزب... الحزب عرف الطريق يا سادة إنه يبدأ في شارع بنسلفانيا وينتهي بمبني الكونجرس، ومن سبق فاز..!

لقد غدت مفردات اليسار العربي سهلة الفهم، فهي تساوي اليوم نقيض ما قام عليه هذا التيار وما استورده قبل عقود، ويكتفي أن نتظر إلى الموقف قبل عشرين عاماً أيام النضال الثوري، والمد القومي، ثم تنظر إلى موقف اليمين الرجعي، لتخرج بموقف اشتراكيالي اليوم وشيوعي الحاضر، إن مفردات الخطاب السياسي هي مفردات الرجعية السابقة مضروبة بالأمس ثلاثة.

لقد كانت الدولة الشيوعية في جنوب اليمن مثالاً للتطبيق الصارخ للماركسيين في جميع أنحاء العالم، أما في الغد فلا يبتعد أن يقيم هؤلاء قبة للسيد البيض تحج إليها القبائل ويرقص بجانبها الدراويش، وتقوم بتمويل الرحلات السياحية إليه شركة أمريكان إكسبرس بالتعاون مع فرع الحزب الاشتراكي في المنطقة.

ولكم أن تتأملوا اليسار في محضنه الغربي، وهذا الخبل السياسي الذي يصر على أن يقيم كرسي حكمه على جمام البشر وهياكل الشعارات والمبادئ المفلسة، بينما يغذي جنونه وشبقة شوق عارم للسلطة والنفوذ، ورغبة جامحة للوصول إلى كرسي الحكم، حتى لو أريقت الدماء، وأزهقت الأرواح ومورس الدجل السياسي بصورة تدعو للخجل، لو كان هناك خلق فضيلة، أو خصلة حياة.

حوار

لقاء مع فضيلة رئيس المشيخة الإسلامية في كوسوفو المسلمة

كوسوفو منطقة إسلامية مازالت ترثى تحت نير الاستعمار الصربى بعد تفكك جمهورية يوغسلافيا، وعند ما أعلن برلمانها في أيلول ١٩٩١ م الاستقلال ونصب زعيمهم (د. إبراهيم دوغوفا)، قامت حكومة الصرب بالغاء حكمها الذاتي وربطتها بالحكومة الصربية مباشرة وسامت أهلها سوء العذاب وما زالت، وسبق أن تطرقنا بالتعريف بهذه المنطقة المسلمة مع بيان لمخطط التدمير الصربى لها في العدد (٧١).

ويسر مجلة «البيان» في سبيل التعريف بهذه المنطقة ورموزها المشهورين، اللقاء مع فضيلة رئيس المشيخة الإسلامية بكوسوفو د. رجب بويا، حيث يحدثنا عن واقع المسلمين ومعاناتهم وما يحتاجونه من دعم وتأييد، والدور المنتظر من إخوانهم المسلمين لنصرتهم. **البيان**-

بطاقة تعريف :

ولد في مدينة كلينا بكوسوفو، ودرس فيها إلى المرحلة المتوسطة، ثم حصل على درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد كانت بعنوان «الألبانيون والإسلام»، ثم حصل على الدكتوراه وقد كانت بعنوان «المسلمون في يوغسلافيا».

*ما هي أهداف زيارة فضيلتكم إلى بريطانيا، وهل أنتم مرتاحون لنتائجها؟

في الحقيقة الزيارة هي للتعرف على المراكز الإسلامية والجمعيات والاستفادة منها في العمل الإسلامي، لا سيما أنها في أوروبا وهي قريبة منا، وقد استفدنا كثيراً من حيث التنظيم والعمل.

*نرجو لو حدثمنا عن أبرز التطورات في كوسوفو في الفترة الأخيرة.

إن قضية كوسوفو شبيهة بقضية فلسطين، هي الآن محنة من قبل الصرب وكوسوفو هي أصلاً جزء منألبانيا، وقد قاموا باقتحام هذا الجزء، علمًا أن سكان كوسوفو من الألبان المسلمين يشكلون نسبة ٩٠ % وفي كوسوفو ١٠٠ ألف جندي صربي، ومن قبل كان الوضع لباس به اقتصادياً ولكننا الآن صرنا نعاني من أزمات اقتصادية لاسيما بعد تسريح ٢٠٠ ألف عامل من أعمالهم في المصانع والدوائر الحكومية والمستشفيات وغيرها من المرافق.

*هل ملت هذه الأماكن بالصربيين أم تركت فارغة؟

إن الصرب يشكلون نسبة ٥ % من السكان، وإن كانوا يحاولون بعد إخراج الألبان من أعمالهم أن يسدوا العجز بغيرهم، ولكن بقيت الكثير من الأماكن فارغة، وما زال الحال هكذا بلا تغيير حتى الآن.

* هل هناك فرق بين الصرب في ألبانيا والصرب في صربيا، لأن هناك من يفرق بينهم؟

نعم في السابق كانت هناك فروق بين الصرب المقيمين في كوسوفو ومن هم داخل صربيا، ولكن مع التغيرات انقلب الصرب في كوسوفو وصاروا كالصربين خارجها في معاملتهم مع المسلمين.

* ما هو الموقف الذي لمسته من الدول الإسلامية تجاه محتكم؟

إلى الآن لا نكاد نرى شيئاً من الدول الإسلامية، لا مساندة سياسية ولا اقتصادية، وحتى الإعلامية قليلة جداً.

* وهل ينطبق نفس الكلام على الجمعيات الإسلامية وهيئات الإغاثة؟

هناك من الجمعيات من قامت بالمساعدات البسيطة جزاهم الله خيراً وكان من الواجب أن يقوموا بأكثر من ذلك.

* ما هو المشروع الأبرز الذي تودون أن يقوم به المسلمون؟

الشيء الذي نطلبه من إخواننا جميعاً أن يقوموا بالتعريف بقضيتنا، وبهذه المساندة يستطيعون تدارك موقف إخوانهم قبل أن يضعفوا، ونود أن تكون المساعدة في التعليم والصحة والعمل الدعوي الإسلامي، علماً أنه لدينا والحمد لله مدرسة ثانوية شرعية فيها ٤٥٠ طالباً، وكلية للدراسات الإسلامية بإشرافنا، ولكن هذه المؤسسات تحتاج إلى دعم مادي حتى تؤدي رسالتها، وكذلك عندنا ٢١ مركزاً إسلامياً تحت إشرافنا.

* معلوم أن قيمة كفالة الدعاة تختلف بين بلد وآخر، فهل يمكنكم أن تعرفونا عن القيمة لكافلة داعية في كوسوفو؟

لقد اتصل بنا عدد من الجمعيات لكافلة دعاة وأئمة مساجد، والحمد لله لم نطلب منهم ما يعطى للدعاة الآخرين في الدول الأوروبية، فيكفي الداعية مبلغ (٢٠٠) دولار أمريكي شهرياً.

* إن الأمة bosnianة قد دخلت في منعطف جديد بعد إعلان الحكومة البوسنية المسلمة الاتفاق مع الكروات الكاثوليك، ماذا ترون في هذا الاتفاق وإنعكاساته على الأوضاع في كوسوفو؟

إن إخواننا في البوسنة أعلم مما بوضعهم واستراتيجيتهم وسياساتهم نحوها ولا أستطيع أن أقول شيئاً لعدم اطلاعي على الموقف من قريب، ولكني أقول إنهم يعملون جاهدين لحمل أمانة بلادهم ومسؤولياتها، نسأل الله لنا ولهم التوفيق والسداد.

* هل هناك نشاط بارز للدعاة لدى العدوان الصربي في المدى الطويل؟

نحن في المشيخة الإسلامية ليس لدينا دعاة من الخارج، فكل الدعاة من الداخل وكلهم من الإخوة الألبان، وهم مع المسلمين في أمورهم الدعوية والسياسية والاقتصادية ويعملون مع الناس ويساعدونهم في إخراج البلاد من هذه الأزمة، والكل يعمل ويجهد.

* ما هي الحجج التي يتذمرون الصرب بها في احتلالهم لكوسوفو؟

إنهم يقولون إن كوسوفو مهد الصرب، فهم من حيث الموضع يرون أنها صربية، وأن الألبان في زعمهم ما هم إلا جالية جاءت من ألبانيا من قبل الأتراك العثمانيين، وهذا الأمر يُصرح به تارة ويُلوح به تارة أخرى، وهم أيضاً يطمعون في أراضي كوسوفو الخصبة والغنية من ناحية الخيرات، فهم يزعمون أنهم ضحوا فيها بالدماء خاصة في حربهم مع العثمانيين ويقولون: لا حق للألبان في هذه الأرضي، وقد حضروا من ألبانيا ولكننا نعتبر أنفسنا من أصل السكان، ولسنا جالية، ونحن مسلمون منذ أجدادنا وهذه هي الحقيقة.

* كلمة أخيرة لقراء المجلة؟

إن كلمتي لإخواننا هي أن يقوموا بالدور الإعلامي لإبراز قضيتنا والقضايا الإسلامية الأخرى، وكذلك مساعدة إخوانهم بكل ما يستطيعون.

ال المسلمين والعالم بعد «التطهير»* مقال مترجم

ترجمة: د. أحمد بن راشد بن سعيد

الوقت هو يوم الجمعة ليلاً، ومطعم «أدریا» في «بانيالوكا» يغص بالحديث والضحك والموسيقى، لا أحد يلقي بالاً إلى الأرض المهجورة في الجانب الآخر من الطريق، والمكسوة ببقايا مسجد «فرحات باشا»، الذي يعود بناؤه إلى القرن السادس عشر.. كل مساجد «بانيالوكا» دمرت منذ بداية الحرب. المسلمين القلائل الباقيون في أجزاء البوسنة التي استولى عليها الصرب لم يعودوا يأملون في أي نوع من التدخل، قبل اندلاع الحرب الأهلية في عام ١٩٩٢م كان عددهم يقارب ٣٥٠٠٠ نسمة، ومنذ ذلك الحين حوالي ٩٠٪ على جوانب الطريق المؤدية إلى «بانيالوكا» يشاهد المرء حطام بيوتهم وأطلالهم بعض الخرائب الباقية يرتفع عليها العلم الصربي إشارة إلى أن عائلة صربية تنوي إعادة بنائهما والسكن فيها، وبعض آخر يفكك بغرض استعمال أجزائهما مواداً للبناء. في بلدة بوسنية يحتلها الصرب وجدنا ثلاثة رجال مسلمين مستعدين لقاء زائر أجنبي، إلا أن الرعب كان ينتملكهم من عقاب الصرب إلى حد أنهم لا يريدون أن يُعلنَ عن مكانهم ولا عن أسمائهم، أحدهم زعيم ديني وشيخ كبير، لم يقل لنا شيئاً، ولكن دموعه انهرت على وجنتيه، أصغر الثلاثة سناً وهو يكتب مذكرات يومية لما يعانيه شعبه من اضطهاد قال لنا: «التطهير العرقي» مستمر، في مارس قتل ٣٧ مسلماً و٣ كروات في بيوتهم في «بريدور»، وفي الشهر الماضي امرأة مسلمة اسمها «نورا ميدانوفيتش» تبلغ الخامسة والثمانين من العمر قتلت في بيتها في «بانيالوكا»، المسلمين بشكل يومي تقريباً يجلدون في الشوارع والأسواق، والذي يزعج المسلمين أكثر هو سياسة العمالة القسرية التي ينتهجها الصرب، قال الشاب: «هناك ١,٥٠٠ مسلم يجبرون على العمل الآن»، وأضاف: «إنهم يجعلوننا ننظف الشوارع نقطع الأخشاب، نشذب الأشجار، ونحصد القمح، وقد بدأوا مؤخراً بإرسال كثيرين ليحرروا خنادق في الجبهة، وقد قتل الكثير منهم هناك».

قلة من المسلمين فضلوا السلام عبر اعتناق النصرانية! امرأة صربية في قرية «بوسانسكا غراهوفو» الصغيرة قالت إن أصدقاء مسلمين لها اختاروا هذا الخيار: «في العام الماضي عمدوا كنصارى أرثوذكس لأنهم يريدون البقاء».. وقد أرسلوا مؤخراً إلى جبهة «بيهاتش» شمال غرب البوسنة، وأضاف: «إنك لا تخيل كم هي سيئة حالتهم، إنهم لا يغادرون الخنادق مطلقاً لأنهم سيقتلون إن حاولوا ذلك، إنهم يقضون حاجتهم ويأكلون وينامون في الخنادق..».

الأموال المقدمة من «بلغراد» إضافة إلى شبكة تموين سرية قلل النقش (في مناطق البوسنة التي يحتلها الصرب)، والذي أحدثته العزلة والعقوبات الدولية.

في «بانيالوكا» الأنناس المستورد وفاكهه «الكيوي» متوفرة بسهولة ويستطيع المقدرون شراء أزياء حديثة في المتاجر الواقعة على شارع «غوسيودكا». الصرب في كل «بانيالوكا» يقولون إن اليونان عملت الكثير لتحسين الأوضاع، فقادت برفع مستوى التعامل التجاري مع الصرب رغم العقوبات. «كوبير يسانين» أحد الصرب قال: «لقد أثبتت اليونان أنها أحسن أصدقائنا» مثيراً إلى أن «تهديد الإسلام» في البلقان قد أجبر الصرب واليونانيين والبلغار على تكوين جبهة مشتركة.

الهوامش :

* عنوان المقال: After "Clearing", الكاتب: لارا مارلو المصدر: مجلة تايم، التاريخ: ٦ يونيو ١٩٩٤ م

المسلمون والعالم أو جادين انتصارات جديدة للمجاهدين

الإتحاد الإسلامي في أو جادين
تمهيد:

أو جادين قطاع مسلم تحتله أثيوبياً منذ سلمته بريطانياً عام ١٩٤٨ م، وسبق للمجلة أن عرّفت بهذه المنطقة في عدد سابق، وقد تلقينا هذا التقرير عن انتصارات المجاهدين هناك من مكتب العلاقات الخارجية والإعلام للاتحاد الإسلامي في أو جادين، شاكرين تواصلهم مع المجلة مع دعائنا لهم بالنصر والتمكين. البيان

((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون)) [الصف: ٨]

ما زالت الهجمات الصليبية المتحالف مستمرة على إخواننا المجاهدين في أو جادين، وقد ابتدأت منذ عامين إلا أنها أخذت طابعاً جديداً منذ يوم ١٤١٤/١١/١٠ هـ، وقد اختلف الهجوم الأخير عن الهجمات السابقة لكونه أول هجوم تشارك فيه أطراف خارجية مباشرةً منذ اندلاع المعركة، حيث شاركت في قصف المواقع طائرات أجنبية (غربية)، كما تمثل القوى المحلية الصليبية الحكومة الأثيوبية التي تشارك في الهجوم البري المكثف، وذلك بعد أن خسرت مليشيات «التجراي» «الكثير من محصلة إحدى وعشرين مواجهة في الفترات الماضية.

وقد أحبط الله كيد الصليبية التي خططت للتصفية النهائية للمجاهدين في هذا الهجوم الأخير، بفضل الله سبحانه وتعالى ثم للأسباب التالية:

١- أخذ المجاهدون تكتيك عدم التمركز في مناطق معينة، وانتشروا في أنحاء المنطقة وفي طولها وعرضها ليمارسوا حرب العصابات المستمرة في الليل والنهار.

٢- بفضل من الله هطلت أمطار غزيرة لم ير لها مثيل في الآونة الأخيرة وهذه الأمطار ساعدت المجاهدين، كما عرقلت وسللت حركة العدو الذي لم يستطع الخروج من مناطق كثيرة مثل (لغب) حيث انقطعت الطرق، وتعطلت كثير من آلياتهم ومعداتهم العسكرية.

وبعد أن أخفق العدو الصليبي في هجماته المتحالف بدأ الانتقام من الشعب الأعزل، وأخذ يمارس ضدهم ما يلي:

١- جمع أعيان الشعب وبخاصة المتهمين بأنهم من أنصار الجهاد، وقتلهم بصورة بشعة.

٢- جمعوا المصايف والكتب الإسلامية وكل ما هو مكتوب بالعربية وأضرموا فيه النار.

٣- هدمت وأحرقت عدد كبير من منازل الشعب المسلم الأعزل.

٤- تقوم الطائرات الحربية بقصف آبار الشعب التي تشرب منها الماشي التي يعتمد الناس في حياتهم المعيشية عليها، وذلك حتى يتوقف الشعب عن تأييده للمجاهدين.

المعارك وتنفيذ عمليات ناجحة:

قام المجاهدون بتنفيذ عمليات ناجحة في الأيام القليلة الماضية ذكر منها:

- ١- في ١٤١٤/١١/٢٠ هـ قام المجاهدون بالهجوم على مطار «جودي» العسكري وتفجيره ليلاً، وكانت عملية ناجحة حيث عاد المجاهدون سالمين.
- ٢- في ١٤١٤/١١/٢١ هـ التقت كتيبة من المجاهدين ومجموعة من مليشيات العدو في «هطاوي» قرب عاصمة المنطقة «جودي»، ودار بينهما قتال مرير كان النصر فيه حليف المجاهدين، وبينما هم يجمعون الغنائم من المعدات الحربية وصلت الطائرات الحربية المساندة فانسحب المجاهدون من الموقع.
- ٣- في ١٤١٤/١١/٢٢ هـ تصادمت كتيبة من المجاهدين وقافلة للعدو قرب بلدة «كنجدة» انهزمت قافلة العدو، وتمكن من الفرار.
- ٤- في ١٤١٤/١١/٢٦ هـ نصب المجاهدون كميناً لнациفة للعدو تقل عدداً كبيراً من جنودهم، وقد تمكن المجاهدون بفضل الله سبحانه وتعالى من الاستيلاء على هذه الناقفة بعد قتال عنيف، وأصبح من فيها بين قتيل ومشرد، وغنم المجاهدون غنائم عديدة من بينها عدد لا يأس به من البنادق وجهاز لاسلكي، وكمية جيدة من الذخائر.
- ٥- في ١٤١٤/١٢/٥ هـ اصطدمت كتيبة من المجاهدين ومجموعة من مليشيات العدو في موقع قرب بلدة «جرسلی»، ودار بينهما قتال مرير استمر عدة ساعات، وأسفرت هذه المعركة عن إبادة المجموعة النصرانية البالغ عددها (٤٠) جندياً، حيث لم ينج منهم إلا اثنان فقط، وعادت الكتيبة المجاهدة إلى مواقعها سالمة والله الحمد.
- ٦- في ١٤١٤/١٢/٦ هـ قام المجاهدون بتنفيذ كميناً ناجحاً لقافلة في مدينة «جودي» العاصمة، حيث أغاروا جنديين وجرحوا واحداً من مليشيات العدو الصليبي.
- ٧- في ١٤١٤/١٢/٨ هـ نصب المجاهدون كميناً لقافلة للعدو قرب مدينة «قبردھري» ونجم عن هذا الكمين تدمير سيارة تقل عدداً كبيراً من جنود العدو الذين صاروا ما بين قتيل وجريح.
- ٨- في ١٤١٤/١٢/١١ هـ تمكن المجاهدون من تفجير سيارة وقتل من فيها، كما استولوا على سيارة أخرى بحمولتها في نفس الموقع، وكان موقع العملية بين مدينة «فربريح» و«طجبور».
- ٩- في ١٤١٤/١٢/١٦ هـ التقت سرية من المجاهدين ومجموعة من مليشيات العدو قرب بلدة «شنيلي» ودار بينهما قتال مرير استمر لعدة أيام كامل وبفضل الله فقد انهزم جنود العدو وولى ظهره تاركاً على أرض المعركة (٧٠) قتيلاً، أما المجاهدون فقد قتل منهم عشرة وجرح خمسة، نسأل الله أن يتقبلهم شهداء في سبيله.
- ١٠- في ١٤١٤/١٢/١٧ هـ اشتربت كتيبة من المجاهدين ومجموعة من مليشيات العدو في نواحي مدينة «طجبور» ودار بينهما قتال عنيف استمر نحو ساعتين، وانتهت المعركة باندحار المجموعة النصرانية وانتصار المجاهدين، حيث أسفرت هذه المواجهة عن قتل (٤٧) من الجيش الإثيوبي وجرح ما يربو عن (٣٠) منهم، ومن جانب المجاهدين فقد سقط منهم (٣) مجاهدين، وأصيب (١٠) مجاهدين آخرين نسأل الله أن يتقبل الموتى شهداء في سبيله.
- ١١- في ١٤١٤/١٢/٢٨ هـ هاجمت سرية من المجاهدين وفي وضح النهار قاعدة للمليشيات التجارية النصرانية في مدينة «طجبور»، فقتلوا اثنين من جنود العدو وغنمو بندقيتيهما، وأصيب أحد المجاهدين بجروح طفيفة.

اعتقال الرئيس المحلي بعد عزله:

في ١٤١٤/١٢/٢ هـ الموافق ١٩٩٤/٥/١٣ م قامت السلطات الأثيوبية باعتقال الرئيس المحلي لأوجادين «حسن جري قلنلي»، ونائبه «أحمد علي طاهر»، وذلك بعد أن رفضا طلب هذه السلطات

تسليم السلطة إلى «عبد الرحمن محمد أغاس» المعين من قبلها لما في الأخير من الولاء الشديد إلى الذي يصل إلى درجة العمالة لحكومة الاستعمار.

وبعد أن تعرض الشعب للخطوات الوحشية السابقة من الغارات البرية والجوية التي لا تفرق بين المجاهدين المسلمين وبين الشعب الأعزل، كما تعرضت قيادته السياسية المتمثلة في الحكومة المحلية وبرلمانها المحلي إلى سلسلة من التدخلات والمضايقات أدت إلى زجهم في السجن بصورة بشعة، الجدير بالذكر أن إسقاط الحكومة المحلية في أوتجادين واعتقال رؤسائها المحليين هو للمرة الثانية خلال عام واحد.

وبعد هذه الخطوات بدأ في أنحاء المنطقة وبخاصة في المدن الرئيسية مثل «جودي» العاصمة و«قبرديري» و«طجحبور» مسيرات ومظاهرات واحتتجاجات على هذه التصرفات غير الإنسانية، فكان رد الحكومة الأثيوبية أن قامت بمزيد من المداهمات والاعتقالات الجماعية وبخاصة ضد أعضاء الحكومة المحلية والبرلمان، بل تعدى الأمر في هذه المرة إلى إعدام أعداد كبيرة من أعيان الشعب والوجهاء، فبدأ الشعب يخرج من المدن ليتلقى بالجهات المسلحة بعد أن لم يستطع الصبر على هذه الانتهاكات والممارسات من قبل السلطات الاستعمارية في أديس أبابا، ويلاحظ أن هناك مشاركة فعلية من قبل الشعب في المعارك الأخيرة بعد أن كانت محصورة بين مجاهدي الاتحاد الإسلامي وبين مليشيات «تجراي» النصرانية في خلال العامين الماضيين.

وذلك أن الشعب كان يراهن في انتهاء الفترة الانتقالية لحكومة الأثيوبية، ومن ثم تحديد موعد لإجراء استفتاء عام حول استقلال أوتجادين ولما انتهت هذه الفترة الانتقالية التي مدت عدة مرات من قبل الجبهة الحاكمة في أديس أبابا (EPROF) اتضحت للشعب خرافية الوعود الكاذبة التي ترددتها هذه الشلة الاستعمارية بأن لكل قومية أن تحدد تقرير مصيرها، وأن تختار ما تشاء في ظل الدستور الجديد! بل أكثر من ذلك انكشف الوجه الحقيقي لهذه العصابة المتعصبة التي كسرت عن أنبيابها لتمارس سياسة الحديد والنار في قمع الشعب المسلم في أوتجادين، وتنكرت لكلامها المعسول الذي كانت تردد في الفترة الماضية عندما شعرت أن بإمكانها حسم الصراع لصالحها عن طريق القوة العسكرية بواسطة حلفائها الغربيين، الذين يتذلّلون دائمًا في الصراع الدائر في القرن الإفريقي لصالح الأقلية الاستعمارية في أثيوبيا، والتاريخ القديم والحديث يثبت صحة ذلك.

وفي صعيد آخر فقد استعدت الجبهة الوطنية لتحرير أوتجادين للمواجهة المسلحة مع مليشيات العدو، وانسحبت قيادتهم من المدن، وأغلقوا معظم مكاتبهم، وقال الأمين العام لهذه الجبهة الوطنية «إبراهيم عبد الله» في مقابلة مع هيئة الإذاعة البريطانية في ١٤١٤/١٢/٢٨ هـ: إن الشعب أوتجادين يتعرض لحملات إبادة واعتقالات واسعة، بل وتعذيب وإعدامات في داخل السجون الجماعية وقال: أن جبهته تقاتل بجانب مجاهدي الاتحاد الإسلامي لرفع الظلم والضيم عن الشعب في الأوتجادين، ولن نضع البندقية حتى نحصل على حقوقنا في تقرير المصير.

وهكذا نجد أن تخطيط الصليبية المتحالف قد خاب وفشل ((ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)), كما نجد أن الهجوم الواسع الذي اشتراك فيه أطراف أخرى، والذي كان مخططًا منذ فترة طويلة وعلى تمثيل مستوى عال في العناصر المتحالف، قدباء بالفشل الذريع والله الحمد وأصبحت نتائجه عكسية حيث إن الشعب كله اشتراك في المعارك الأخيرة، وأصبحت المسألة بين شعب أوتجادين المسلم البالغ ستة ملايين نسمة، وبين مليشيات الاستعمارية الصليبية.

ومما يدل على فشل هذا الهجوم الذي يهدف إلى استئصال المجاهدين وإخماد أي مقاومة منهم أن المعارك والعمليات الناجحة قد ارتفعت بصورة واضحة أكثر من ذي قبل.

ومن ناحية أخرى تشير الأخبار الواردة من أنحاء الأوجادين أن معنويات المليشيات الاستعمارية في الحضيض، وأن آثار الملل والإرهاق ظاهرة عليهم لذلك فإنهم الآن يبحثون التفاوض مع قيادات أوجادين لإنهاء التوتر الذي عم في أنحاء المنطقة، إلا أنهم لم يجدوا استجابة حتى الآن لما اشتهروا به من الغدر والخيانة في مفاوضاتهم الماضية.

ونحن بدورنا ننبه أن الحرب الدائرة في أوجادين حالياً ليست حرباً بين الإتحاد الإسلامي وبين الحكومة الإثيوبية فقط، وإنما الحرب بين شعب أوجادين المسلم الذي يئن تحت الاستعمار الحبشي منذ قرن من الزمن، وبين الحكومة الاستعمارية النصرانية في أثيوبيا، وخير دليل على هذا اعتبار أوجادين منطقة عسكرية منذ أن ضمتها بريطانيا إلى أثيوبيا عام ١٩٤٨ م ظلماً وعدواناً وإلى يومنا هذا، حيث تندلع في كل عدة سنوات حروب طاحنة لتلخيص المنطقة من أيدي المستعمرين، وما كانت حرب ١٩٧٧ م المشهورة بـ(حرب أوجادين) التي تعتبر من أكبر الحروب التي عرفتها البشرية إلا واحدة من هذه الحروب.

لذا فإننا ننادي إخواننا في كل مكان أن يقفوا إلى جانب إخوانهم في أوجادين، وأن يستنكروا الانتهاكات والممارسات غير الإنسانية التي يتعرض لها الشعب المسلم من قبل نصارى الحبشة المتعصبين المغتصبين، حيث إن طبيعة المعركة لا تختلف عن طبيعة المعركة القائمة في كل من فلسطين والبوسنة والهرسك.

نسأل الله تعالى أن ينصر عبادة المجاهدين في كل مكان، وأن يجعل الدائرة والذل والصغر على من عادى وظلم.

متابعات

الندوة الدولية حول التقارب في استانبول عرض وتحليل

سعد بن محمد آل عبد اللطيف

أقيمت هذه الندوة في إسطنبول بتركيا من ١٣١٥ ١٩٩٣ م برعاية وقف دراسات العلوم الإسلامية بتركيا وهي مؤسسة علمية تعنى بالأبحاث والدراسات العلمية، تحت عنوان (الشيعة عبر التاريخ وحتى يومنا الحاضر)، وقد بدأ الإعداد لهذه الندوة والأبحاث التي أقيمت فيها منذ ثلاث سنوات، وقد اشترك فيها ستة عشر عالماً من جامعات تركيا، وقد قاموا برحلة علمية إلى إيران لمدة أسبوعين.

والهدف من هذه الندوة: تدارس التقارب بين السنة والشيعة!، وما هي العوائق التي تحول دون ذلك.

وأقيمت في بداية المؤتمر كلمة ترحيبية يمثل صاحبها أهل السنة!! وكلمة ترحيبة أخرى يمثل صاحبها الرافضة، والأول من بلد له ثقل كبير عند أهل السنة والآخر له ثقل كبير أيضاً عند الرافضة، ولهذا الاختيار مغزى كما ترى، وقد اتفق الطرفان على أن الخلاف بين طائفتيهما السنة والرافضة هو خلاف هامشي !!

ثم أقيمت البحوث التي أعدها أساتذة جامعات من تركيا، وفي الغالب كان يتلو هذه البحوث تعقيد من الحاضرين من علماء ومتوفي الشيعة الحاضرين في الندوة، وسنعرض لبعض أهم هذه الأبحاث عرضاً موجزاً.

الأبحاث:

بحث بعنوان نشأة الشيعة وتطورها، د. أدهم روحي فغلالي رئيس جامعة موغلا بتركيا تحدث في هذا البحث عن منشأ الخلاف وأساسه بين السنة والشيعة وهو مسألة الإمامية، وذكر أن الشيعة يسرون أن الإمامة بالنص وأنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم لأبنائه، وذكر أن الإمامية رکن من أركان الإيمان عندهم، ثم تتبع أحداث التاريخ لرصد تطور معتقدات هذه الفرقـة أي الإمامية الإثنـا عشرية.

ثم جاء تعقيب د. محمد علي آذرب أستاذ في جامعة طهران بإيران حيث شكك في دعوى أن الإثنا عشرية يقولون بأن إماماً على بن أبي طالب كانت بالنص، وعرف التشيع بأنه هو الاعتقاد بأن على بن أبي طالب وأهل البيت أفضل الناس للخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. فقط، ثم ذكر وعلى حسب زعمه أن أغلبية الصحابة لم يبايعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، ثم ذهب يطعن في الأمويين والعباسيين (١).

بحث بعنوان آراء الشيعة في علوم القرآن، د. موسى كاظم يلماز من كليات الإلهيات بجامعة طهران، وتحتث ف قال: إن القرآن جاء بالتواتر دون زيادة ولا نقصان، بخلاف الرافضة القائلين بوقوع التحرير في كتاب الله بأقوال علمائهم ونقلًا عن مصادرهم، وجعلها على قسمين: القسم الأول المصادر والأقوال للعلماء المتقدمين منهم ما قبل القرن الرابع ، والقسم الثاني العلماء القائلين بهذا القول ممن عاشوا ما بين القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الهجري ثم ذكر قسمًا ثالثاً وهم القائلون بعدم وقوع التحرير.

ثم جاء التعقيب من محمد باقر حجي أستاذ كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية بجامعة طهران الذي أكد في أول الأمر أن القرآن الكريم جمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم- وليس في زمن أبي بكر كما قال الباحث، ثم زعم أن الرافضة لا يقولون بتحريف القرآن، وأن الروايات التي في هذا الباب هي ضعيفة السند وهي مخالفة للقرآن والسنة والإجماع!! ثم ذكر عدة كتب لهم تتفى القول بتحريفه وقال: لو أن وجود روايات تدل على التحريف عند الشيعة يعني أن الشيعة يومنون بتحريف القرآن لكان وجود الروايات الكثيرة الدالة على التحريف في نطاق واسع عند أهل السنة! هي أيضاً دليلاً على اعتقاد أهل السنة بالتحريف!! ثم ذكر بعض هذه المرويات التي على فرض صحتها من جهة السند وليس فيها دلالة على التحريف، من ذلك ما جاء في كتب الحديث أن آية الرجم نسخت تلاوة وبقيت حكماً، ففي هذا الحديث دلالة على وقوع التحريف في القرآن الكريم كما يزعم! ولا شك أن ذلك سفسطة (٢).

*بحث رأي الشيعة الإمامية الإثنا عشرية في التفسير، د. علي أوزك كلية الإلهيات بجامعة مرمرة تحدث عن عقيدة الإمامة عندهم وكون الإمام لابد أن يكون معصوماً، وذكر أمثلة على تفسيرهم وتأنیلاتهم لآيات القرآن الكريم في دعوى الإمامة والنصل فيها فيما يرى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبنائه من بعده.

ثم ذكر أركان مذهبهم وهي: العصمة، المهدية، الرجعة التقية وكيف أنهم أولوا آيات القرآن الكريم لتسويغ هذه الأركان والاستدلال على أهميتها وشأنها في الدين عندهم.

ثم تعرض للخصائص المشتركة كما يرى بين السنة والشيعة، وهي: التوحيد النبوة المعاد، ولكن المعلوم أنهم نفاه لصفات الله عباد للقبور غلاة في أنتمهم، معرضون عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، معادون للصحابة رضوان الله عليهم... إلى آخر معالم مذهب القوم.

ثم ذكر الباحث أن العلم بالقرآن الكريم وبنفسه هو خاص بالنبي وأل بيته رضي الله عنهم فقط،
وذكر أن الإمام عندهم له أحقيّة التشريع!

ثم علق المهدي الحسيني الروحاني بأن أركان الدين الأربعة ليست أركان بل هي أمور وقضايا فرعية! وأصول الدين عندهم هي خمسة: التوحيد العدل النبوة الإمامة، وقال: إن القول بأن الشيعة ترى أن للإمام أحقيّة في التشريع يجب اتباعه على ما يرى والتصديق بما يقول كذب عليهم! بل هو قول أهل السنة الذين جعلوا الصحابة رضوان الله عليهم لهم أحقيّة التشريع!! وهو يشير هنا إلى مسألة قول الصحابي وحكم الأخذ بقوله، وهي مسألة أصولية وقع فيها الخلاف بين أهل السنة، ثم زعم أن أهل السنة يقولون كما تقول الشيعة بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، (كذا زعم!)^(٣)

كان هذا التعليق المتهافت سبباً في أن يعقب الباحث د. علي أوزبك على تعقيب الروحاني، حيث قال: إن المقصود في اجتماعنا هو الوصول إلى الحق والتجرد له دون محاكمة الصحابة وآل البيت^(٤). بحث بعنوان أصول الدين عند الشيعة، د. عوني إنحاف كلية الإلهيات بجامعة ٩ سبتمبر تحدث في بحثه عن أصول الدين عندهم، وهي: التوحيد والعدل، وقد وافقوا المعتزلة في هذين الأصلين: التوحيد بنفي الصفات والعدل بنفي القضاء والقدر.

الأصل الثالث النبوة، والرابع الإمامة، والخامس المهدوية، والسادس المعاد، بالإضافة إلى الرجعة والتقية، ثم شكك الباحث في كونهم يعتقدون بتحريف القرآن، ويرى أن التقية أمر طبيعي ربما احتاج له المسلم العادي إذا ما خاف على نفسه أو على من يعز عليه، وبخاصة وأن منهم الإثنى عشرية الذين لاقوا وذاقوا الكثير من المحن والمصاعب، فكان هذا دافع للتستر خلف ستار التقية.

ثم جاء تعقيب آية الله مهدي الحسيني الروحاني الذي قال: إن كلمة الشيعة تعظم أنتمهم كما زعم فإن هذا التعظيم لا يعود مثل تعظيم أهل السنة للصحابة!! ثم ذكر أن قومه يوافقون الأشاعرة في تنزيه الله عز وجل يعني نفي بعض صفات الله عز وجل بخلاف من وقع في التشبيه من أهل الحديث السلفيين والحنابلة وابن تيمية وأتباعه من الوهابيين! (كذا زعم).

ثم يعود ويدرك أن المعتزلة هم الذين أخذوا هذين الأصلين عنهم: العدل والتوكيد لا العكس، وهذا ادعاء غير صحيح، فإن الشيعة ومتقدميهم وخاصة كالروافض كانوا في أول أمرهم مشبهة ومن رؤوسهم في هذا الباب كما هو معروف هشام بن الحكم، ثم تحولوا إلى الاعتزال ونفي القول بنفي القدر ثم كيف يزعم في أول الأمر أنهم وافقوا الأشاعرة في باب التوكيد؟ وهنا يرى أن المعتزلة قد وافقوا؟ والأشاعرة تثبت بعض الصفات وتنتفي بعضها الآخر أما المعتزلة فينفون جميع الصفات، فهل وافقوا الرافضة حينما قالت بنفي بعض الصفات أو نفي الكل؟! ثم يوافق الباحث في أنهم لا يقولون بتحريف القرآن!! ويختلف الباحث في أن التقية والرجعة والبداء ليست من العقائد بل هي من المسائل الفرعية.

*بحث بعنوان مناقشة آراء الإمامية وتقييمها حول موضوعات أصول الدين، د. يوسف شوقي يأوزع كلية الإلهيات بجامعة مرمرة تعرض لما تعرض له زملاؤه السابقون، ثم أشار إلى أن التقية والعصمة والإلهام الغيبي كانت وراء ما أسماه بـ الإمامية الإلهية.

ثم تحدث الباحث بمرارة عن عقيدتهم في أنهم المجتهدin، وأنها فتحت باباً للظلم والاستبداد والعبودية، ونقل عن أحد علمائهم أنهم يرون طاعة المجتهدin من علمائهم في كل شيء، ومن رد عليه فهو راد على الإمام والرادر على الإمام راد على الله^(٥).

*بحث بعنوان الفكر الشيعي من التقية والانتظار إلى الولاية المطلقة، أحمد الكاتب، تحدث في بحثه عن الفكر السياسي الشيعي مرحلة الانتظار والتقية حيث تجمد الحدود عندهم والقضاء وغيرها من الأمور حتى يخرج الإمام من السرداب، وهناك من قال بفكرة النيابة وذلك بأن يقوم الفقهاء بالقضاء وأخذ الزكوات وغيرها.

وكانت النيابة بذرة لفكرة وعقيدة ولاية الفقيه التي تطورت على يد الخميني حديثاً حيث أخذ بيت هذه الفكرة بين طلابه في النجف، وألف في شأنها كتابه الحكومة الإسلامية، ثم قام بالتطبيق العملي لهذه الفكرة حينما وصل إلى سدة الحكم في إيران، وللحكومة الإسلامية وتحت ستار ولاية الفقيه أن تفعل ما تشاء، فلها مثلاً أن تهدم المساجد إذا رأت ذلك، أو تمنع أفراد الشعب من الحج إلى مكة المكرمة... إلى غير ذلك^(٦).

*بحث بعنوان التقية والعصمة والإلهام عند الشيعة الإمامية د.موسى الموسوي رئيس المجلس الإسلامي في لوس أنجلوس بأمريكا قال في شأن التقية: كانت ولازالت لها آثارها السيئة في حياتنا، ولازلنا ندفع ضريبتها الباهظة.

ووضرب أمثلة على عقیدتهم التقية فقال: إن عقیدتهم في الخلفاء الراشدين عقيدة غير حسنة كما تشهد بذلك كتبهم ولكنهم يضمرون هذه العقيدة أمام أهل السنة ويقولون فيهم قوله حسنا.

ويرفض أن تنسب عقيدة التقية إلى الأئمة من آل البيت، ثم قال عن عقيدة عصمة الأئمة: إنما وضعت هذه العقيدة لأجل غاية وهي القول بـ الإمامة الإلهية، وشهاد شاهد من أهلها^(٧). وهناك أبحاث أخرى منها: الثورة الإسلامية الإيرانية والشيعة في القرن العشرين، الشيعة من القرن العاشر إلى القرن العشرين^(٨)، فروع الدين عند الشيعة، العبادات في المذهب الجعفري، التصوف عند الشيعة الزيدية... وغيرها من الأبحاث.

وفي الخاتمة:

توالت كلمات الحاضرين من أهل السنة من غير الأتراك من رعايا الدول العربية وباكستان ومن هم على مذهبهم بالثناء على هذه الندوة، ودعوتها إلى الوحدة الإسلامية ونشر المحبة بين الفريقين أهل السنة والشيعة ، إلا أنهم أكدوا على جوب توضيح موقفهم أي الرافضة من مسألة وقوع التحريف في القرآن الكريم ومسألة سب الصحابة وتحذيرهم عامتهم من الواقع في هاتين المسألتين، كما دعى مثل إيران إلى أن يكون الاجتماع القائم في إيران وبإشراف مجمع التقرير بين المذاهب الإسلامية الموجودة هناك^(٩).

وقفات مع هذا المؤتمر:

أولاً: يتميز هذا المؤتمر أو الندوة بالطابع العلمي الأكاديمي إلى حد ما ومن ثم فهو ليس كغيره من مؤتمرات التقرير التي يغلب عليها الجانب العاطفي والذندنة حول شعارات الوحدة الإسلامية ومواجهة الأعداء... الخ.

ولكن ينقص أصحاب هذه البحوث الشيء الكثير من التأصيل العلمي الشرعي للموضوعات المطروحة، وما يتربّ على معتقداتهم تلك مع أهمية عدم الاغترار بزخرف قولهم وبخاصة وأنهم أهل تقية، ومعرفة أقوال سلف الأمة والعلماء والمعتبرين المعاصرین فيهم، والرجوع إلى كتب الملل والنحل لمعرفة حقيقة مذهبهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، إذ كيف تعرف ذلك إلا بمعرفة أحكام وشرائع هذا الدين من مصدريه الصحيحين الكتاب والسنة والتجدد للحق ونصرته دون مواربة أو مجاملة أو عواطف زائفة؟!

فهناك من الباحثين من هُون من شأن في إثبات الصفات المثلى لله عز وجل كما دلت على ذلك النصوص الشرعية كما هي عقيدة أهل السنة أما القوم فهم ينفون هذه الصفات، فيرون أن الأمر ليس ذا أهمية وأنها قضية هامشية؟! وهناك من شكك في كونهم يقولون بوقوع التحريف في القرآن وغيرها من الأخطاء الثابتة فعلياً في مراجعهم المعتمدة.

ثم لابد للباحث من الحصيلة العلمية الشرعية الصحيحة والعقيدة والتصور الصحيح من أجل التقييم الصحيح على وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومما يدل على ضعف الحصيلة العلمية

الشرعية عند هؤلاء الباحثين، عدم تعرضهم لتوحيد العبودية عند أولئك، وبخاصة وأن مواقفهم معروفة في هذا الباب، كيف لا وهم يحجّون إلى قبور أئمتهم؟! كما هو معروف في مشاهدهم في العراق وإيران مثلاً.

ثانياً: الغاية من المؤتمر والمقصد منه هو التقريب، وهي غاية فيها نظر، فهل يجوز التقريب بين أهل السنة والمبتدعة، فضلاً عن أولئك؟! وهل المقصود من التقريب التنازل من أهل السنة عن عقائدهم!! أم هل يمكن الاجتماع معهم وهم يقولون بوقوع التحريف في كتاب الله ويردون السنة؟! ويکفرون الصحابة.

ثالثاً: عند وقوع التنازع بين أهل السنة والقوم سيقوم أهل السنة بالرجوع إلى الكتاب والسنة عند وقوع هذا الاختلاف والتنازع، عملاً بقوله تعالى: ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُوْدُهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)) [النساء: ٥٩]، أما أولئك فيقولون أن القرآن الكريم محرف وربما أولوه على أهوانهم، أما السنة فهي عندهم ما نسبوه إلى أئمتهم (فقط)، ويطعنون في الصحابة رضوان الله عليهم إلا القليل منهم ويطعنون في السنة إلا أحاديث معدودة، يقدمون أقوال علمائهم ومراجعهم في الحوازات العلمية على نصوص الوحي، فكيف يتلقى الفريقان بل كيف يتلقيان؟!

رابعاً: توصل بعض الباحثين إلى نتائج طيبة في معرفة عقيدة القوم من القول بوقوع التحريف في القرآن الكريم إلى الطعن في الصحابة، إلى التقية والعصمة وغيرها، ولكن ماذا يتربّط على هذه العقائد من حكم قائلها، وكيف نتعامل معه على ضوء معتقداته الفاسدة؟ هل يمكن بعد كل ذلك أن نجلس معه ونتحاور ونثني عليه ونحسنظن؟!

كيف نكون مع قوم يطعنون في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم - وفي صحبه الأطهار، ويرجون لليوم يظهر فيه إمامهم المزعوم ليهدم الكعبة ويقتل أهل السنة ويبطش بهم؟! كيف يؤمن جانبهم وهذا ما يؤمنون به، وإلى متى نبقى سذجاً إلى هذا الحد؟!

الهوامش :

- (١) انظر لبيان أن الإمامة للإمام علي ليست بالنص (منهاج السنة) لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- (٢) انظر إلى كتاب (الشيعة والقرآن) لإحسان ظهير، و(الشيعة وتحريف القرآن) للأستاذ محمد مال الله، من واقع كتبهم المعترية.
- (٣) انظر لمناقشة مسألة أن للقرآن ظاهراً وباطناً في كتاب (التفسير والمفسرون) للشيخ الذهبي، وكتاب (الفكر الصوفي) للشيخ عبد الرحمن عبدالخالق، وكيف دحضها.
- (٤) انظر الشيعة والتفسير (د. علي السالوس) و(الشيعة والسنة) لإحسان ظهير.
- (٥) انظر منهاج السنة لشيخ الإسلام، ومناقشتهم في هذا الباب مناقشة علمية.
- (٦) انظر (دراسة في ولاية الفقيه) د. محمد عثمان، ومعلوم أن كثير من علماء الشيعة مثل (كافش الغطاء) نقد هذه الفكرة التي اخترعها الخميني.
- (٧) انظر (الشيعة والتصحيح) لموسى الموسوي، لمزيد من الإيضاح لهذه المسألة.
- (٨) انظر (الثورة البائسة) لموسى الموسوي، و(جاء دور المجروس) د. الغريب.
- (٩) انظر (رسالة التقريب بين الشيعة والسنة) د. الفقاري، من منشورات دار طيبة بالرياض، حيث نقاش هذه المسألة بما لا مزيد عليه.

محاسبة النفس ونقد الذات رؤى دعوية لإصلاح المسار

عبد العزيز بن محمد الوهبي
تمهيد:

لقد سرني وأتّلّج صدري ما كتبه الأخوان الفاضلان الأستاذ/ جمال سلطان في مقاله (الدعوة السلفية رؤية نقدية)، وما كتبه الأستاذ/ أحمد الصويان في مقاله (الاستبداد الدعوي) اللذين نشرا في العدد (٧٣) من هذه المجلة فهيج ذلك المقالان شجناً قدّيمتاً عندي، وأحببت الإلقاء بدلوبي في الموضوع بهذه المقالة، عسى أن تدفع هذه المشاركة الآخرين لتناول تلك القضية من زوايا أخرى تعين على وضوح الرؤى، وسلامة الفهم، وحسن السلوك. والله من وراء القصد.

ثمة عيّان بارزان، وشاهدان عدلان على ضعف الإنسان وعجزه وقصوره، هما: الظلم والجهل.
(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبین أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً...) [الأحزاب: ٧٢].

هاتان الآفتان هما أساس كل بلاء، وجذر كل نقص في بني آدم، ويمكن رد كل آفة أو عيب من غيرهما إلى هاتين الآفتين مباشرةً أو بطريق غير مباشر. والوعي بهاتين الآفتين والسعى لتلافيهما دلالة على سلامة المنطلق، ونجاح المال بإذن الله تعالى.

آفة الظلم:

وهي العيب الأول، وهو عيب أخلاقي وله مظهران: المظهر الأول فردي يتمثل في أسوأ صورة، التي تتمثل في الشرك بالله تعالى، يقول سبحانه: ((إن الشرك لظلم عظيم..)) [لقمان: ١٣]، وأي ظلم أعظم من الشرك بفاطر الأرض والسموات؟!

ومظهر الثاني لهذا العيب الخطير جماعي متعد، يتمثل في ظلم الناس، وأسوأ صورة له هي الكبر الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم- (الكبر بطر الحق وغمط الناس... (١)، وقال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...) (٢).

آفة الجهل:

وهي العيب الثاني، وهو عيب معرفي ويتجلّى هو الآخر في مظاهرتين: المظهر الأول الجهل بالشريعة المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بالإعراض عنها كلياً وهو حال الكافرين المستكبرين الذين قال الله عنهم: ((والذين كفروا بما أنذروا معرضون)) [الأحقاف: ٣]، أو الإعراض عن بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم- وهو حال العصاة الفاسقين، أو المبتدعة الزائغين، الذين قال الله عن أشباههم: ((أفتقؤمنون ببعض الكتاب وتکفرون ببعض مما جزء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيمة يردون إلى أشد العذاب..)) [البقرة: ٨٥].

الأمر الذي يؤدي إلى التفرق والاختلاف، ((فسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيمة..)) [المائدة: ١٤]، ذلك الجهل وذلك الانحراف نابعاً من اصطناع منهج منحرف في الاستدلال كمناهج الصوفية والباطنية، أو قصور المنهج المعتمد كمناهج الخوارج، وتلك صورة تتكرر، ومتازلة حيث تتمسك بعض الطوائف ببعض الجوانب التي حرث عليها الإسلام وأمر بها، فتجعل منها قضية الإسلام الأولى والأخيرة وتتمسك طائفة أخرى بجانب آخر وتعطيه الأهمية نفسها، وتتكرر الواحدة منها على الأخرى وتقاطعها وتداربها، وتتمزق الصفوف، وتبدد الجهود وربما وصل الأمر إلى التقسيق والتبديع، بل ربما وصل الأمر إلى التكفير وإهار الدماء، نسأل الله السلام والغفران والعافية.

تلك بعض آثار المظاهر الأول من مظاهر الجهل. المظاهر الثاني وهو الجهل بالواقع: إذ أن الشريعة أحكام كلية وضعفت ل تعالج أحداثاً جزئية، ولذلك لابد من فهم الواقع بشكل صحيح، من أجل تنزيل أحكام الشرع عليه، ومن صور الجهل بالواقع اصطناع منهج في الفهم والتحليل يقود دائماً لفهم خاطئ ومعالجة خاطئة، ومن الأمثلة الشهيرة في التحليل السياسي على سبيل المثال نظرية المؤامرة، تلك التي ترجع كل الأحداث والواقع والمستجدات لمؤامرة عالمية واحدة يختلف في تحديدها ولكن النتيجة واحدة مؤامرة شديدة الإحکام، شديدة الدقة، شديدة النجاح لا نملك إزاءها صرفاً ولا عدلاً، وتحيط بكل شيء علمًا، قد تكون خلف هذه المؤامرة الماسونية السرية، ذات القيادة الخفية، وهي حکومة عالمية خفية تجتمع وتخطط، وتدير كل شيء، وكل هذه الحكومات والدول والمنظمات إنما هي أحجار على رقعة الشطرنج، تتحرك وفق مخطط مدروس كي تتفذ لعبة الأمم، وتعبث بمقدرات الشعوب.. هذه النظرية ليست مختصة ببعض المسلمين، بل هي منهج مريح يعفي من تبعات التحليل والتدقيق والمراجعة، وكانت سائدة في بعض المدارس التحليلية الأمريكية عندما كانوا يرون الشيوعية خلف كل خطر يتهددهم كما هو لدى المكارثية.

تلك أربعة فروع من فروع الخل السلوكى (الأخلاقي) والخلل المعرفي تتفرع عنها فروع أخرى كثيرة.

مدارس فهم النص:

في المسألة المعرفية الاستدلالية نود طرح هذا السؤال: هل جاء الإسلام بمفردات نصوص تؤخذ هكذا مبعثرة، ويتعامل مع كل نص بمفرده كأنه منهج مستقل وتشريع منفرد، أم ينظر إليه كما ينظر إلى الخلية في الجسد الحي لا قوام لها إلا به، ولا حياة لها إلا بحياته، وعزلها وفصلها يعني موتها المحقق..؟! ثم إذا سلمنا بأن الشريعة كل متكامل يصدق بعضها بعضاً، ويؤيد بعضها بعضاً كما قال الله تعالى: ((الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني)) [الزمر: ٢٣]، فأي هذه النصوص هو المحور، وأيها الأطراف؟! أيها هو العمود الفقري، وقطب الرحي الذي لا قيام لغيره إلا به..؟! أيها المحكم الذي يمكن من خلاله فهم المتشابه... الملتبس الغامض..؟! ولنأخذ على ذلك مثلاً توضيحاً سريعاً: في مسألة الموقف من عصاة الموحدين في شريعة الإسلام، فنحن نجد هنا مدارس متعددة في فهم النص وإدراكه أشهرها ثلاثة:

أولاً الخوارج: الذين آمنوا بأن النص المحكم في هذه المسألة هو قول الله سبحانه وتعالى: ((ومن يعص الله ورسوله وي تعد حدوده فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً..)) [الجن: ٢٣]، وكل نص خلاف هذا النص فهو عندهم مردود عليه ، فنصوص مغفرة الذنوب دون الشرك، مثل قوله سبحانه: ((إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك..)) [النساء: ٤٨] ، المقصود بها ما دون الكبائر.. وهذا ، ومن خلال هذا الفهم السيء فإن مرتکب الكبيرة المصر عليها كافر خارج من الملة مخلد في نار جهنم والعياذ بالله..!!

ثانياً المرجئة: الذين قالوا بأن النص المحكم في هذه المسألة قوله سبحانه وتعالى: ((قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)) [الزمر: ٥٣] ، وكل نص يفهم من ظاهره خلاف هذا النص فهو غير مراد والواجب تأويله، فمثلاً الآية التي استدل بها الخوارج على مقولتهم السابقة، فإن المقصود بالمعصية في الآية هو المعاصي المكفرة كالسخرية بالدين، أو ذم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، أو كراهيته ما أنزل الله... الخ.

ثالثاً مدرسة الصحابة أو المنهج الحق: أما علماء الصحابة ومن اقتفي أثرهم، فقد رأوا أن في المنهجين خلاً معرفياً استدلاليًّا ظاهراً، ذلك أنه في حقيقة الأمر فإن الآية المحكمة في الباب هي

قوله سبحانه وتعالى: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ..)) [النساء: ٤٨] ، فبهذه الآية تجمع أطراف النصوص ويفسر بعضها بعضاً، فنصوص الوعد بالجنة للموحدين العصاة الذين يقترفون الكبائر، هي بعد تطهيرهم في النار حيناً من الدهر، أو بمغفرة الله سبحانه وتعالى لهم، ونصوص الوعيد على المعصية المقصود أن الفاعل لها مستحق للوعيد وقد يعاقب بذلك العقاب، وقد يغفر الله له، أو تكررها طاعاته أو البلاء الذي يصيبه في الدنيا، أو غير ذلك من الأسباب، ولا ريب أن فهم السلف هو الفهم السديد، وهو مقتضى النصوص الواردة المتواترة في إقامة الحدود على مرتكبي الكبائر، إذ لو كانوا كفاراً لوجب قتلهم، ولغير ذلك من الدلائل. ولا ريب أن هذا الفهم هو الذي يعصم المجتمع من التمزق والحروب الداخلية الناجمة عن رؤية وفهم الخوارج، كما يعصم من التحلل وانتشار الفساد والجريمة الناجم عن الرؤية الإرجائية. ومن هنا نفهم حقيقة قول الله سبحانه: ((إِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرِدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)) [النساء: ٥٩]، فالرد إلى الله والرسول ليس عملاً تعبدياً فقط ينجو به الفاعل من عذاب الآخرة، بل هو أيضاً أحسن مالاً ومصيرًا في الدنيا للأفراد والجماعات.

ولقد دلت نصوص الكتاب والسنّة على الأهمية الكبرى لمراجعة المسيرة ونقد الذات، والنصوص في هذا كثيرة جداً، فمن ذلك قوله سبحانه: ((وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِيَّاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ..)) [التوبه، ٧١]، فجعل سبحانه وتعالى مناط الولاء هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك ظاهر لا ريب فيه، إذ إن المداهن الساكت عن مخالفات أخيه يكون في صدره حرج منه، كما أن لأخيه حرجاً هو الآخر إذ هو يعلم أن أخيه منكر في نفسه لهذا الفعل، ولكنه لا يبين له هذا الإنكار مما يدل على وجود حاجز بينهما، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ((لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنَ مَرِيمٍ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لِبَئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ..)) [المائدة: ٧٨، ٧٩] ، فكان سبب حلول اللعنة عليهم ترك التناصح والتذكير.

ولقد حفلت نصوص الكتاب الكريم والسنّة المطهرة بالكثير من التقويم والمراجعة والتصحيح، فمن ذلك الآيات في غزوة بدر الكبرى التي فرقت بين الحق والباطل، واختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- في قسمة أول غنائم يحصلون عليها، ونزول سورة الأنفال تعالج هذا الحديث العظيم: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطْبِعُوا اللَّهُ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ..)) [الأنفال: ١، ٢]، وهكذا تمضي الآيات متواالية في درس تربوي طويل وعظيم وعجب.. ومع نزول هذه الآيات، وبعد عام فقط، تكون الأنفال هي السبب الأساس في هزيمة أحد، وتتنزل الآيات لا تجاملهم ولا تحابيهم رغم هزيمتهم وألمهم يتنزل فيهم قوله سبحانه: ((وَلَقَدْ صَدَقْتُمُ اللَّهَ وَعْدَهُ إِذْ تَحسُنُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْتُمُّوهُمْ عَنْهُمْ لِيُتَلَقَّوْكُمْ وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ...)) [آل عمران: ١٥٢].

هكذا يجتمع عليهم الدرس العملي القاسي بالهزيمة، والدرس النظري باللامامة، كتاباً يتلى إلى يوم القيمة، ويسمع به خصومهم، ولا يقال: ربما شمت الأعداء بنا.. ربما وربما..، بل يكون البيان في وقت الحاجة إليه والتذكير في قمة الانفعال، ليكون ذلك أبلغ وأعمق أثراً. وفي موقع وأماكن وحوادث كثيرة أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تستقصى، حتى لقد صح عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كنا لا نتباسط مع نسائنا والوحي ينزل

مخافة أن ينزل علينا شيء، حتى إذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم - تباستنا ... !! بهذه الحساسية كانوا رضوان الله عليهم يتلقون الوحي، ويستمعون إليه.

ضرورة المحاسبة والمراقبة:

من هذه النصوص ومن غيرها، ندرك الأهمية القصوى لمحاسبة النفس ومراجعة المسيرة، وتصحيح الطريق، وهي حقيقة موضوعية تنبه لها عقلاً البشر وأسواء العالم، فوضعوا لهذا الغرض مجالس الشورى ودوائر المراقبة، وغير ذلك، ومن هنا كانت الأهمية الكبرى لأن يتعدّد الدعاة وقفات المراجعة ومجالس المناصحة، ومؤتمرات التصحيح، وأن يرحبوا بالنقد الهدف ويصبروا على التوجيه الإيجابي، بل ويصنعوا الأدوات والآليات التي تضمن لهذا النقد وذلك التوجيه أن يؤتى ثماره وينتج فوائده المرجوة.

خلل في زوايا ثالث:

وسأطرق لهذا الموضوع في هذه العجالة من زوايا أساسية ثالث ، أرى أن الخلل يظهر واضحاً فيها وهي:

أولاً فقه المقاصد وغایات الدين الكبرى:

ففي هذه الزاوية يظهر خلل عميق شديد الإيذاء في فهم كثير من الدعاة والجماعات للغايات الكبرى للدين، وترتيبها فيما بينها، وفي ترتيب الأولويات ويتوجه كثير من هؤلاء إلى التعامل مع هذا الموضوع ومع جميع القضايا إلى التفكير البسيط المختزل، ومن خلال هذا التفكير المبسط لدرجة الأخلاق يتحرك الفرد والجماعة، ويرسم طريقه، ويحدد مساره.

فمثلاً يسأل: لم خلق الله الخلق؟ فتكون الإجابة: ليعبدوه وحده سبحانه وتعالى، بدليل قوله تبارك وتعالى: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون...)) [الذاريات: ٦٥] ، أي يوحدون.

ثم يسأل: وما التوحيد؟ فيجاب: هو إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة وهو ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، ثم ينسى توحيد الألوهية ويركز على النوع الأخير لأنه النوع الذي يكثر فيه الانحراف حسبما يرى، فلا يتحدث إلا عنه ولا ينافق إلا فيه، ولا ينددن إلا حوله وينسى أو لا أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة، وأن عمارة الأرض، ورحمة البشرية، والقوامة على الناس من أنواع هذه العبادة ، وأن الله تبارك وتعالى جعل وجود الجماعة لتحقيق هذا الغرض، والقيام بهذه الرسالة، فقال سبحانه: ((هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..)) [هود: ٦١] ، أي طالبكم بعمارتها.

ولذلك يغيب هذا البعد للأسف الشديد عن أذهان كثير من الإخوة الدعاة، فلا يلتقطون إليه، ولا يعالجونه، ولا يسألون عنـه، بل ربما نظر إليه بعضهم نظرة نفور وتغيير، بل ربما نظرة تبديع وتضليل، فيرون الاهتمام بإعداد القوة التي أمر الله بها: ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..)) [الأنفال: ٦٠] يرون ذلك نوعاً من التساهل وتضييع قضايا الدين، ويجهلون أنهم إنما جعلهم الله تبارك وتعالى للشهادة على الناس والرحمة للعالمين: برهـم وفاجرـهم مسلمـهم وكافـرـهم: ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) [الأنبياء: ١٠٧] ((وكذلك جعلـناكم أمة وسطـاً لتكونـوا شهـداء علىـ الناس..)) [البقرة: ١٤٣] ولذلك فهم لا يقومون بأي جهد لعمارة الأرض على أحسن صورة، والإعداد القوية، وللشهادة على الناس .. بل تراهم يُزَهـدون في فهم الواقع، وفي متابعة المستجدات المهمة، وفي تعلم اللغات الأجنبية وغيرها وباختصار كل ما من شأنه الحصول على القوة، والقيام بالشهادة.

ثانياً إدراك الذات ومعرفة الآخر وكيفية التعامل معه:

ولقد جعل الله لكل من آفقي الظلم والجهل دواءً، فدواء الجهل السؤال والتعلم، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم - لمن أفتوا صاحب الشجاعة بالاغتسال حتى مات (قتلوه قتلهم الله.. ألا سأله حين جهلوه، فإنما شفاء العي السؤال..) (٣) فالعلم بنوعيه: العلم بالدين والشرع، والعلم بالكون والواقع هما الشفاء للداء العريق في الإنسان، داء الجهل، وقد يسر الله وحده ودينه: ((ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من ذكر..)) [القرآن: ٣٢]، كما يسر فهم كونه، وقد وضع الحدود الشرعية والكونية، والمخالف لها إنما يضر نفسه، ويذمر مجتمعه وتبقي السنن ويتمزق هو: ((تلك حدود الله فلا تعتدوها..)) [البقرة: ٢٢٩] ولقد أدرك علماء الطبيعة ذلك فالالتزاموا بالحدود الكونية كما هي دون أن يسألوا عن سبب مقدار سرعتي الضوء والصوت، ولا عن سبب مقدار عجلة الجاذبية، ولكنهم اكتفوا بقياسها والتزموا به، ولو خالفوه لدررت آلاتهم وخاب سعيهم.

وهكذا الشأن في أمر الله الشرعي ووحيه المنزل، فهو يسير ولكنه خطير، سهل ولكنه ثقيل... ((إنا سنلقي عليك قوله ثقيلاً..)) [المزمول: ٥] ويكفي أن نعلم أن أخطر مذهبين عقائديين شهدهما العصر الحديث، وقامت على أساس هذين المذهبين ما يسمى بالدول العظمى روسيا وأمريكا، وهما الرأسمالية والاشتراكية (الشيوعية) ومجالهما الحيوي الاقتصاد.

إن هذين المذهبين نقضا في كتاب الله تبارك وتعالى في آية واحدة هي قوله سبحانه: ((ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا..)) [البقرة: ٢٧٥]، فكون البيع حلالاً ذلك نقض للاشتراكية التي تدعو للملكية العامة، وإبطال ملكية الأفراد في النهاية وتحريم البيع بذلك، وتحريم الربا نقض لقاعدة المركزية في النظرية الرأسمالية، وهي قاعدة الربا التي لا وجود للنظام إلا بها. من ذلك يتبين لنا أن دعوة الإسلام والساigin لتغيير مجتمعاتهم حتى تسير وفقاً لشريعة الله تبارك وتعالى، عليهم أولاً وقبل كل شيء فهم شريعة الله تبارك وتعالى كما أنزلها لا كما تهوى نفوسهم وترغب أفندتهم، عليهم فهمها بشمولها وعمومها، وبالطريقة الصحيحة المعتبرة، عليهم أن يتثنوا ركبهم لهذا الغرض ويصبروا ويصابروا، وعليهم كذلك فهم واقع مجتمعاتهم والواقع الدولي من حولهم، وتزيل هذا الفهم الشرعي على الواقع المتغير المتعدد، كي يتمكنوا من قيادة ركب البشرية، وليس فقط منافسة خصومهم والوقوف أنداداً لهم.

ثم عليهم بعد ذلك الفهم، وهذا الوعي تربية ذاتهم ومن معهم على الجوانب السلوكية والسبيل العبادية لله تبارك وتعالى، والقيم الخلقية مع عباده المؤمنين وغير المؤمنين، وهي عملية شاقة فعلاً، ولكن لا مناص عنها، كانت تلك هي منهجية رسول الله عليه وسلم - وصاحب حبه، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: كنا لا نجاوز عشر آيات حتى نعلمها، ونعمل بها، فتعلمنا العلم والعمل جميعاً. ولا سبيل غير هذا السبيل: علم وعمل، معرفة وسلوك، قول وفعل ظاهر وباطن.. ولقد لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم - ربع قرن يربى أصحابه بالعلم والعمل ثم ما لبث في الرابع الثاني أن هز بهم رضوان الله عليهم أجمعين الدنيا وجابه بهم التاريخ، وأسقط بهم القوتين العظيمتين: فارس حيث أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم: (إذا هلك كسرى فلا كسرى غيره..) (٤)، والروم البيزنطية التي انكفت على نفسها في أوروبا، ولم ترفع رأسها طوال عشرة قرون حتى جاء العصر الحديث، والذي حدث أول مرة يمكن أن يتكرر مرة أخرى إذا وجدت شروطه الموضوعية، لأن الوحي لا يزال موجوداً محفوظاً ((هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله..)) [الصف: ٩].

ثالثاً إدراك سنن الله في الكون والأفراد والجماعات:

لقد تعلمنا من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله، أن الله في مسيرة الكون والمجتمع سنناً دقيقة قابلة للرصد تحتاج، للتعامل معها والتحرك من خلالها، كما قال سبحانه: ((ولن تجد لسنة الله

تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً)[فاطر: ٤٣]، ومن تلك السنن الكثيرة أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن للتمكين في الأرض شروطاً وضوابط: ((إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين..)) [البقرة: ١٢٤]، وقال أيضاً: ((إن تنتصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم..)) [محمد: ٧].

ومن ذلك أن الناس يسارعون لتذكير من يأتيمهم بالغريب غير المعتمد ويحتاجون ل الكثير من الوقت حتى تختمر الفكرة في أذهانهم فيؤمنوا بها: ((بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيمهم تأويله..)) [يونس: ٣٩]، ومن ذلك أيضاً أن الجماهير تخضع لما يسمى في نظريات الإعلام بالعقل الجمعي وقادة الرأي، قال تعالى: ((إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أذبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر..)) [المدثر: ١٨ - ٢٥]، قال هذا قائد الرأي الجاهلي الوليد بن المغيرة ثم ردتها الجماهير من ورائه دون تفكير، ولذلك طالبها تبارك وتعالى بالنظر الفردي أو الثنائي: ((قل إنما أعظمكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد..)) [سبأ: ٤٦].

وإذا صح هذا في الجahلية مع التخلف الإعلامي والاتصالي والانتقالاني فهو في العصر الحديث أجيال وأوضاع وأظهر، لذلك فإن ثقل الأمانة وضخامة التبعة على الدعاة في الوقت الحاضر كل ذلك ضخم جداً، ولن يطيقوه إلا بالعلم ديناً ودنياً، والعمل الجاد عبادة وعمارة، والتربية الصالحة العميقية نسكاً وخلقاً، ثم رص الصنوف ووحدة الكلمة، على كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، والوعي بالواقع والسنن، والتحرك بالأهداف البعيدة والكبيرة: ((ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرموا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور..)) [الحج: ٤٠، ٤١].
والحمد لله أولاً وأخراً.

هوامش:

- (١) صحيح أبي داود، كتاب اللباس بباب ما جاء في الكبر، وصححه الألباني في صحيح الجامع ج ٢، ص ٧٧٠، ح ٤٦٠٨.
- (٢) صحيح أبي داود ، كتاب اللباس بباب ما جاء في الكبر، ج ٢، ص ٧٧١.
- (٣) أبو داود، ج ١، ص ٢٣٩، ح ٣٣٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ج ٢، ص ٨٠٤، ح ٤٣٦٢.
- (٤) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان، ج ٧، ص ٢١٨ ؛ مسند أحمد، ج ٢، ص ٢٦٣ .

منتدي القراء من مأسى تاريخنا المعاصر

صالح محمد العصيمي

وقفت ذات يوم معنى النظر في خريطة العالم الإسلامي، وكلما نظرت إلى بقعة في تلك الخريطة أغمضت عيني، ثم صرفتها بسرعة إلى بقعة أخرى ثم بدأت أبحث عن مكان يكسوه اللون الأخضر، ولكن للأسف كانت تلك الخريطة تكاد أن تكون حمراء اللون والدماء الزكية تسيل في

شعب العالم الإسلامي وأوديته وتتجمع أنهاراً مع أنهار الدموع لتكون بحر المأساة الكبرى، أما الرؤية في بحر المأساة فإنها معدومة فشمس الإسلام قد حجبت بغيار الذنوب والخطايا. ففي البوسنة والهرسك يقتل المسلمون، ودول الغرب تحيك المؤامرات. والمسلمون يبلغون المليار، يعيش أكثرهم بلا هدف، ولا هم مشترك وذلك يجعلهم مجرد هامش في صفة التاريخ. كان اليهود والنصارى وأمم الأرض جمياً يهابوننا عندما كنا نهاب الله ويخشوننا عندما كنا نخشي الله، ويأبهون بنا عندما كنا نهتم بإخواننا في كل مكان، أما وقد تركنا ذلك كله فكان لزاماً أن تمضي سنة الله فينا ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيرة ما بأنفسهم)) [الرعد: ١١]. إن نداءات المسلمين من يوغسلافيا أو من الفلبين أو من الحبشة والهند موجهة أساساً إليك أنت!.. نعم أنت يا من تقرأ هذه السطور وتقلب هذه الصفحات، هل تعتقد أن المخاطب غيرك أو أن المسؤول سواك؟ كلا وإن كنت تحسب ذلك فاعلم أن هذه هي المشكلة وأن هذا هو الخلل.

عندما صاحت تلك المسلمة وامتصاصها، كان هناك رجل مسلم لم يتاجهل الأمر، كذلك فإنه لم يقل: هل سأقاتل الروم وحدي!! ولكنه فعل ما يستطيع فركب البحر ثم جد في السير حتى بلغ المعتصم بلغه الصرخة، ولو أن كل واحد منا عرف تقديره فعل لإكماله لكان الأمر هيناً، ولكن للأسف كل من سمع بالمصالب اعتقد أن المخاطب هو كل مسلم يعيش على هذه البسيطة سواه. اعلم يا أخي أنك بإيمانك وبغيرتك على أمتك تمثل أمة واحدة ودولة كاملة، فيك جهاز للدفاع عن الأمة، وفيك جهاز للإعلام بواقع الأمة، وفيك بيت للمال يدعم الأمة، فلا تتحقر من أمرك شيئاً، ذلك الرجل الذي بلغ المعتصم صيحة المرأة المسلمة انتقم للإسلام ببعض كلمات، فهلا نصرت الإسلام وأنت على أحد ثغوره؟!

يجب على كل منا أن يساهم في العلاج، وإليك بعضاً مما تستطيع تقديمه:

١- اجعل لهموم الأمة موقعاً هاماً في خريطة قلبك: فالمسلم الحق يتأمل حال أمته ثم يتآلم له، فإذا حضر الطعام تذكر إخوانه الجياع، وإذا جلس مع أفراد أسرته تذكر أفراد أسرة أخيه المنكوب، فصلاح الدين لم يولد فارساً، ومحمد بن القاسم لم يولد قائداً، بل كانوا أفراداً مثلك ولكن نفوسهم سمت فسموا، وهممهم ارتفعت فارتقاوا.

٢- الدعاء: ومن منا يشك في أن الدعاء أمضى سلاح وهو على العدو أشد من القابل والصواريخ، وهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر).

٣- الدعم المالي: وليس المقصود بذلك دفع مبلغ زهيد نشعر به بأننا أدينا ما علينا، ولكن لنقدم إلى من حرم حق العيش والحياة من ضروريات الحياة ما أمكن، فضلاً عن كمالياتها.

الورقة الأخيرة ذوق الداعية

جمال سلطان

الدعوة إلى الله ليست في الحقيقة عملاً علمياً بحتاً، بقدر ما هي عمل اجتماعي، يتخاطب فيه الداعية مع أصناف من البشر، ومستويات من المدارك والأفهام، إضافة إلى شبكة كاملة من العلاقات الاجتماعية لها حساسياتها تجاه الكلام والخطاب والألفاظ، وهذا كله مما يجب على الداعية المسلم

الاحتفاظ بقدر عالٍ من الذكاء والحضور الذهني، وقبل ذلك وبعده إلى قدر عالٍ من الذوق والأدب ورهافة الحس، بالنظر إلى كونه يمثل تجسيداً فريدياً للوجود الإسلامي في المجتمع.

أقول هذا الكلام، المحرج لبعضهم، بمناسبة تكرار صدور تعبيرات وكلمات وألفاظ من بعض الدعاة، في دروسهم أو أشرطتهم أو على منابرهم هي بالتأكيد مما يأبه الذوق، وينفر منه السمع، ويصادم المستمع بطلقات ثقيلة من القبح والذمامة والأذى، وصحيح أن هذا كله لا يصدر عن كبار الدعاة ورموز الدعوة المتميزين، وإنما يصدر عادة عن شباب الدعاة، والمبتدئين في هذا المجال، ولكن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إليه والتحذير منه، لشيوعه وأسراف هؤلاء النفر في استعماله.

خذ مثلاً لذلك الحديث عن تميز المسلمين، وشمولية دين الإسلام لكل سلوكيات المسلم، وهناك نصوص كثيرة تغنى في هذا الشأن، إلا أن بعض الدعاة لا يتخير أو لا يجذب حاسته سوى قول مشرك أو يهودي بذيء، موجهاً حديثه إلى أحد الصحابة: إني أرى صاحبكم يعلمكم كل شيء حتى يعلمكم الخراءة.

يا أخي هذا قول يهودي ثائر حاقد، وبذيء، وقد سجل أهل العلم قوله من باب أمانة النقل، أما أن تصبح بذاءة اليهودي، والخراء، وحديث الخراءة والمستفاد من قصة الخراء، هي حديث المنابر وأشرطة التسجيل، فهذا أبداً لا يكون من الذوق ولا من ذكاء الدعوة ولا من أدب الداعية، ولا من رهافة الإحساس.

إن نزعة تسقط الغرائب والفرائد في الخطاب الدعوي، هي ولا شك فعل المبتدئين، وقليلي العلم والخبرة معاً، ولكننا على كل حال لابد أن ننبه كل من تصدى إلى الدعوة، إلى شرط جوهري وبسيط، وهو أن يمتلك الذوق والأدب الرفيع والرهافة، وأن يحدث الناس بما يعرفون ويتحملون، لا أن يتلمس لهم من الفرائد والنوادر ما يجرح مشاعرهم أو يصادم خواطرهم، بل عليه أن يسمو بهم في خطابه.

والله المستعان

تمت بعون الله والحمد لله رب العالمين